هذه الأقوال لكم

قصص

مصطفى الأسمر



قصص

هذه الأقوال.. لكم

تأليف
مصطفى الأسمر

الإهـداء

إلى . .

هــذا الذى يســــكننا . . يعيش فينا ويحيا بحياتنا

تتنفســـــه صـــدورنــا . . وتــنبــض به قــلوبــنا

فنــشقى بــه تـــــارة . . ونســـعد به أخـــــرى

إليه . .

فقد عرفناه إلى أقصى . . . مدى

ولــــم نعـــــــرفه . . أبـــدا

أبـــــدا

مصطفى الأسمر

يونية ١٩٩٧

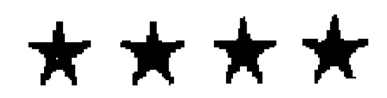
دمياط

مستغربات .. ولا غرابة

تومض الفكرة فى مخ مصطفى فـيهيأ نفسـه لها . . يبدأ أول خطواته لتنفيذها . . يـنظر إلى ساعة الحائط ، البندولية ، المتوارثة عن الأجداد ، والمعلقة فـوق الكنصول الفاخر ذى السطح الرخـامى الأملس ، يرى بعينى رأسه « عقاربها » الثلاثة متعامدة فوق الرقم ١٢ ، أطولها يعتلى الأوسط ، بينما يرتكز الأوسط على أصغرها ، يسمع بأذنيه تتابع قرع دقاتها النحاسية الصوت ، فـينزع ورقة يوم من «نتيـجة» عام تنازل له عنهـا قريب من بين عديد « النتائج» التى أهديت له ، من الأفراد ، أو الشـركات بحكم موقعه الوظيفى . . يكور الورقة المنزوعة ، ويقذف بهـا من الشباك المفتوح، المطل على المنور الداخلى للمبنى . . يصنع اصطدام الورقـة بأرضه امورا عدة ، بداية من الصوت المدوى ، وانتهـاء بتنشيط للرائحة المخزونة فـيه منذ انشاء المبنى . .

★★★★

يخرج مصطفى جسـده من رداء النوم التقليدى ويسحب من الدولاب المفتوح الدلفـتين بنطالا وقميصـا . . يدخل جسده فيهـما ، ثم يضع فوق رأسه قـبعة شـمس ذات حافة عـريضة تغطى أذنيه ، تـتوالى قطرات المطر وتدق زجاج باب الشرفة ، يفتح الباب الحديدى على سعته ، ويتأمل سماء صافـية ، زاخرة بنجـوم لوامع ، يتوسطها بدر غـير منير ، ينصـرف عنها ليفاضل بين حذائين ، هذا السميك النعل الذى طالما خاض به آمنا برك ماد مطر « أمشيرى » وبين صندله البلاستيك الأثير إلى قلبه فى شهر «بؤونة» ، فيضع قدمه فى هذا الأخير ويخرج . .



ولأن مصطفى يخاف من الكلاب إذا نبـحت ، يختار الطريق الموازى لنهر النيل ، وسيلة الوصول إلى البحر المتوسط ، ويتجنب طريق «السنانية» هذا المخترق أراض مزروعة نخلا وبطيخـا ، ليمونا وكلابا ، يعبر مصطفى ابن الأسمر ممتطيا صهوة صندله البلاسـتك الجسر القديم المقام فوق النهر ، فينتقل بهـذا العبور من مينته الـتى ولد بها « دمياط » القائمـة على الضفة الشرقـية للنهر، إلى الضـفة الغربية حـيث قرية السنانية . ومـبنى «محطة السكة الحديد الحكومية » . .

★★★★

يصطنع ابن الأسمـر لنفسـه حركة مـشى تتجاوب مع حـركة القطار المتهيئ للوقوف بهذه المحطة الاخيرة ، ويسعى كى تتناغم صوت حركته مع صوت صرير عجلات القطار، التى تحتك بـالقضبان بفعل «فرامله» . . يمر بجسده من أسفل «الكوبرى» العلوى الجـديد ، وإذ تتلامس قدماه مع بداية الطريق الصاعد إلى «رأس البر» يتخلى فـورا عن مشية «الفرملة» ويبدأ فى الهرولة. . يبحث عن «زلط» من مخلفـات زلط الرصف فلا يعثر بعد عناء إلا على واحدة لاغير، يستـعيض عن الأخرى بكيس بلاستكى أسود اللون يلازم جيبـه دائما كلما خرج من البيت. . يملأ الكيس من مـاء النهر ويبدأ فى مزاولة لعبته المفضلة «الطقة بعـجة» . . يبدأ أولا بالزلطة، يقذفها باليد اليسرى، ثم يصوب تجاهها باليد اليمنى كيس الماء، فإن أصابها «يعبج» كتفه اليسـرى براحة يده اليـمنى، وإن حاد الكيس المائـى بعيدا عنهـا يعج زنده الأيمن بقبـضة اليد اليـسرى. . يستـحسن مصطفى أن يـدخل تعديلا على قانون اللعبة ، وأن يسن عقوبة جديدة ، كـأن يجوع معدته مقتديا بالمواطن الأول ولى الأمر الذى **(لم يذق اليـاميش طول شـهر رمضـان ولم تدخل الكنافـة منزله إلا مرتين فقط وكـان السبب وجـود بعض الضيـوف. . أما افطاره معظم الأيام فـلم يتعد سـوى بطاطس مسلوقة وأمـا بالنسبة لوجـبة**

السحور فلا مكان لها على مائدته كل ما هنالك أنه كان يتناول ثمرة برتقال واحدة فى العاشرة مساء).

★★★★

يقتنع مصطفى بن أحمد بن الأسمر حفيد سيدى «شمس الدين أبو الفتوح الأسمر» «أبو المعاطى» ، صاحب الضريح المشهور المتوسط لمقابر مسلمى دمياط بالتعديل الجديد الذى أدخله على قانون اللعبة . فيلجأ إلى جرابه المعلق بعنقه ، والحاوى «سحوره» المعتاد المكون من صدر فرخة، وثلاث قطع من اللحم «الاسكلوب»، وسلاطة الزبادى «السوبر» المطعمة بمكعبات من ثمار الأناناس، وشرائح جوز الهند، يحوى الجراب كذلك إلى جانب اللحم والزبادى ملء زجاجة من عصير قمر الدين المصفى، ورقائق من «التوست» المحمص فى الزبدة الطبيعى، بالاضافة إلى «مطبقية» الخشاف المكون من ثمار التين والقراصيا والوشنة والمشمش الحموى والزبيب والتى لا مكان فيها لتمر . . يخرج مصطفى كل الأطعمة والأشربة من جراب سحوره ، فيلقى بها فى ماء النهر وليمة لسمك البلطى ليلتذ بها ويسعد بمذاقها . . يبلغ مصطفى «الكوبرى» العلوى الذى يمر فوق القناة الموصلة بين مجرى النهر وميناء دمياط وهو لايزال محتفظا بظلطته. يتوقف عن الهرولة ويصعد الجسر سيرا، ما أن يصل إلى منتصفه حيث تلك النقطة التى هى الأكثر إرتفاعا وعلوا فيه، والتى تصبح بعدها أية خطوة سواء إلى الأمام، أو نحو الخلف إنحدارا حتى يقف ويطل برأسه ليتأمل المياه التى تخرج من أسفل الجسر والقادمة من الغرب. . تسترعى انتباهه تلك الموجة الذهبية التى تخرج من تحت الجسر ، ثم تبدأ فى الارتفاع والعلو علوا عظيما لتفيض على جانبى الجسر ، يطول الماء ركبتيه فيفزع مصطفى ، ويلجأ إلى الكيس الأسود ، يفرغه من مائه فوق ماء الموجة الكاسحة ويبدأ فى تفريغ زفيره فيه تفريغا متصلا لا يتوقف حتى يراه وقد تحول إلى منطاد

عظيم يهيـؤه للطيران ويوجهـه جهة الشـمال ، يرتفع المنطاد تحوطه أشـعة شمس ساطعة لظهيرة وصلت درجة حـرارتها كما ذكرت النشرة إلى درجة مئوية غير مسبوقة التسجيل .

★★★★

يسحب مصطفى دبوسا من قميصه ، ظل يستعمله أعواما عدة كبديل عن الزرار المفقود فـيفتأ به انتفـاخ المنطاد . . يتأرجح الكيس فيتـأرجح معه مصطفى هبـوطا نحو اليابسة وهو عـلى مشارف المصيف ويقـابل مصطفى بمطر وصقيع ونوة«حسوم» يستاء مـن هذا الاستقبال العابس الجاف وهو من توقع استقبـالا حافلا وترحيبا شديدا، لفـوره يقرر أن يقابل إعراض المدينة باعراض أشـد وأنكى، وأن يتعامل مـع جفائهـا بجفاء أعـمق وأقسى . . يتبادر إلى خـاطره خياران أولهما أن يـرفضها ولا يأتى ذكر لاسـمها على لسانه وكلما رأى نقطهـا على خارطة من الخرائط يدلق عليها حـبر زجاجة كاملة باختصار يتعامل معها كما تعاملت **(«مادلين أولبريت» مندوبة أمريكا فى مجلس الأمن ويقـول لها كمـا قالت مادلين إن أمـريكا ترفض أى ذكر للقـدس فى الأراضى المحتلة كـما أنهـا تؤيد وصف الأراضى التى تحتلـها إسرائيل بعد ١٩٦٧ بأنها أراضى فلسطينية محتلة»)** أما الخيار الثانى فهو أن يوليها ظهره، ويسير فى شارعها الرئيسى المخترقها من جنوبها حتى شمالها متوازيا مع مجرى النيل يسير بظهره اسـتخفافا بها ، وإقلالا من شأنها . . ينحاز مصطفى للـخيار الثانى ، وهو السيـر بظهره كموقف لم يسبـقه إليه مرتاد من زوارها ، غـير مبال أو مـهتم بنظرات الفضـول والاستنكار التى تشى بها عـيون المصطافين الحـاملين فوق اكتـافهم مظلات البـحر اللابسين لباسه . . لا يستجيب مـصطفى لمغريات هذا اللباس وهو يراه مشدودا إلى أجسـاد النساء المتـرهلات منهن والمشـوقات . . فـلا يتخـاذل أو يضعف فيسعى لتطبيع نظراته مع ما تدخـر به الأجساد من بروزات وانخسائات كما

تفعل : (**«الدول العربية التى تتسابق إلـى تطبيع العلاقات مع إسرائيل ولا تجد مبررا حـتى للتفكير فى الوصول إلى حد أدنى من مسـتويات البيع مع العراق»**)

★★★★

يقترب مصطفى من الحاجـز الصخرى ، هذا الذى يصنع لسانا يخرج من اليابسة ليمتد إلى جوف البحر ، أحجار من بازلت ، وأحجارا أسمنتية مصنعة بمواصفـات خاصة . . يهنأ نفسه على نجاحـه كأول من يحقق إنجاز السير بظهـره كل هذه المسافة الطويلة دون تعثـر . . فيقرر أن يكافـئها بأن يستـجيب لدعوة الرمال . . ينبطـح فوقها مـتدحرجا لا يشـغل باله إتساخ البنطال الأبيض أو تمزق القميص الحريرى . .

تباغت مصطفى قهقهة القرص الوليد لشمس حزينة يتجه بعينة نحوه، يرى القرص وهو يصعـد بتؤده وخفة درج الفنار القائم على القفـة الشرقية للنهر فيبادله القهقهة ، ويمد له يداه يـعبر فوقها مجرى النيل تسلم الشمس عليه بحرارة ، ويرحب القرص به ويسحبـه نحوه ، ثم يجلسه فوق أشعته البيضاء. . ويبلغه بالنبأ العظيم : (**«ففى الثامن من شهـر مايو القادم تهبط طائرة شركـة التال الاسـرائيلية فى أرض مطار الدوحـة بقطر حاملـة الوفد الاسرائيلـى المشارك فى المفاوضـات متـعددة الأطراف حـول عدم انتـشار الأسلحة فى الشرق الأوسط**) يســأله القرص رأيه . . فـيـبدى مـصطفى تضامنـه مع كل حرف ورد بالنبأ، لأن تـكدس أسلحة الدمار الـشامل من نووية وهيـدروجينيـه بمخـازن العرب سـتصـيب أطفـالهم الرضع بالشلل الرعاش، وشبابهم بالعقم. .

يتوارى الضـوء الدوار لكل من الفنارين القديم والجـديد خلف قرص الشمس ثم يختفى فيسأل مصطفى بحكم الألفة والتواصل قرص الشمس ، والسفن ما مـصيرها الآن من يحدد لها مواقـعها ويهديها إلى مـوانيها التى

سترسو عليها ، وتصافح جوانبها أرصفتها بشوق ؟ كما . . . (يصافح شيوخ قطر الوفد الاسرائيلى الذى سيتجول فى شوارع الدوحة ليشاهد على الطبيعة أحد مدن الثراء والرفاهية).

يفتح قرص الشمس صنابير خزان مياهه المثلجة ، فيلجأ مصطفى إلى الدلفين، يعتلى ظهره ليعود به إلى منطقة اللسان الصخرى، يقول الدلفين : لأنك يامصطفى منحت سمك البلطى ذكوره وإناثه كل سحورك لم تترك لنفسك منه شيئا فلك عندى جائزة كبرى ، مكافأة لك على صنيعك، أما الآن فسأعود بك إلى الشط نجلس معا فوق رماله الفضية الخشنة لتشاركنى طعامى ، فكما أسعدت سمك البلطى بطعامك فعلى أن أسعدك بطعامى ولتلتذ به وتستعذبه . .

يشكر مصطفى الدلفين على كرمه وحسن ضيافته ، ويفصح له أنه يفضل حاليا بدلا من مأدبة الطعام أن يلعب معه لعبة يختارها

يقول له الدلفين : لا مانع عندى فقط عليك أنت تختار اللعبة لأنك ضيفى ، وأنت حفيد «أبو المعاطى» . .

يسأله مصطفى : ما رأيك فى لعبة عسكر وحرامية ؟

هى عظيمة ولكن استسمحك ياصديقى ولتغفر لى صراحتى ولا تغضب منى إن قلت لك إنها لعبة قديمة بالية خاصة بعد أن زاولتها الدول، لا أنكر ياصديقى أنها كانت فيما مضى أيام كنا نلعبها لعبة شيقة ، أما اليوم فلم يعد فيها مايثير

: لأن لعبة الكرة والمضرب الخشبى هى الأكثر ملائمة للمكان فلتكن هى لعبتنا

: سيزعجنا المصطافون حين يلتفون حولنا للفرجة فلا نستمتع نحن

باللعبة فقد يقع أينا فى شبهة الإجادة من أجل الاستعراض أمامهم وليس من باب الاخلاص والتفانى من أجل اللعبة .

: أسمعت عن لعبة صلح ؟

: بل كثيرا ما لعبتها مع الأحفاد والابناء ولكنها صارت لعبة من هذه الالعاب التى عفى عليها الزمن ، بينما الألعاب الجديدة المبتكرة (يا درش) أصبحت أكثر إثارة ، وأشد تشويقا فى ظل نظام عالمى جديد

★★★★

يلمح مصطفى على البعد صديقا فيستأذن من الدلفين فى الذهاب إليه، يأذن له ، وقبل أن يغوص الدلفين فى لجة الماء يحذره مما ينتظره ، ويطالبه أن يكون أكثر حذرا.

: لا تنشغل بأمرى ، فهو صديق قديم ، حميم

: صحبتك السلامة

يرحب مصطفى بالصديق ويقول له

: أنا مصطفى

: وما شأنى أنا بمن تكون أنت ، ثم ما مصلحتى فى معرفة إسمك؟
يهم مصطفى أن يحوط عليه بذراعيه كما الف ، لكن الأخير يستنكر تصرفه وينهره ويأمره أن يبتعد عنه ويتنحى عن الطريق ليمر..

: أعرف إنك دائما شغوف بالمزاح مغرم بالمقالب، الا تتخلى عن دعابتك أبدا ، حتى ونحن لم نلتق من سنوات طوال لم تتخل عن مزاحك

: اسمع ياهذا ، إن لم تبتعد عنى فورا فاستدعى لك الشرطى

★★★★

ولأن مصطفى بمثل ما يخاف من الكلاب يخـاف من الشرطة يبتعد ، يهنأ نفســه لأنه لم يستجـب لالحاح عقله عليـه بأن يضع مسدســه بجراب وسطه فلو أنه حملـه لأفرغ الآن رصاصاته الـتى تمتلأ بها خـزانته فى قلب هذا الصديق . . ولنتج عن هذا أن تأتى الشرطة ، وتقبض عليه ثم تذهب به مغفورا مـقيدا إلى سراى النيابة يحوله النائب إلى المحكمة بتـهمة القتل العمـد مع سبق الاصرار ، ليـقف بعد هذه الرحلة فوق « الـطبلية» ويلف عشماوى حبل المشنقة حول عنقه ولا يبكى عليه باك . . ولأن مصطفى لم يستـجب لإلحاح عـقله بحمل المســدس يثنى على موقف ورؤيـة وتصرف وسلوك د. بطرس غـالى الأمين العام الـدائم للأمم المتحـدة بعد أن تفـهم أخيرا الحكمة الكائنة من وراء تحـذير الذى أثبت به الأمين أنه رجل أستنقذ ببعد نظره البشرية من الوقـوع فى الخطأ ، يقرر مصطفى أن يرسل له برقية تهنئـة وتأيـد لتـصريحـه القـائل . . **(إن رفع الحظر على تزويد القـوات الحكومية البوسنية بالسلاح قد يزيد النزاع فى المنطقة سوءاً)** .

★★★★

يركب مـصطفى رلطته ، ويقـودها نحو مكتب للـبرق ، ليبـرق إلى الأمين . . يرفض عامل المكتب أن يرسلها إلا أن اطلع بعينيه على بطاقته ، ومصطفى منـذ استخـرجها لأول مـرة عندما وصل إلى السن القـانونية ثم لثانى مرة كـبدل تالف بحجة تمزقهـا ، ثم اخبرا لثالث مرة كبـدل فاقد ، وهو لا يحملها أبدا . . لايضعها فى جيب من جيوبه ، ولا تضمها حافظة نقـوده ، ولا تلازمه فى سـرحاته وروحـاته كمـا يفعل الآخـرون . . بل الحقيقة إن الصـلة بينه وبينها غير حميمة ،. ولا ود ومـحبة يربطانه بها ، ولا ألفه وتواصل تضمـاه إليها تعود فى كل مـرة من المرات الثلاث عندما يتسلمها من موظف السجل المدنى بعد دفع الرسـوم وقيمة طابع تمغة التبرع للشـرطة بأن يضعـها عـندما يصل إلى البـيت وهو مـغمض العـينين بين

صـفحـتى كتـاب من الكتب ثم يخلط هذا الكتـاب مع غيـره من الكتب مختلفة الأحجام والألوان والموضوعات.

★★★★

يشرح مصطفى لموظف البرق كل هذا فى محاولة من جانبه أن يرسيه على أبعاد المشكلة المزمنة ، فلا يجد منه تفـهما ولا تجاوبا . . مما يدفعه أن يقـدم له حلا بديلا عن الـتشـدد بضرورة الاطلاع عـلى البطاقة ، يسـأل الموظف مصطفى

: وما هو هذا الحل ؟

يقول مصطفى

: اطبع لكل بصمة إبهامى على أصل البرقية وصورتها وإيصال الدفع واكتب لك فوق ذلك اقرارا مستقبلا . .

يقول الموظف

: أنا على استعداد تام لقبول هذا الحل شريطة تطويره

: وما هو المطلوب منى تحديدا لتطويره

: أن أحتفظ لدى بأصل البصمة ، أى بالإصـبع ، ارفقه كمستند مع باقى المستندات ، حتى يمكن الرجوع إليه عند الضرورة ، أو للمقارنة ، إن احتاج الأمر فحصا ومطابقة ومقارنة.

: أما من حل آخر ؟

: أنت على وعى ، وتعـرف قسوة الإجـراءات التى يمر بهـا موظف صـغيـر مثلى ، لذا يلزمنى الأصل أحـتمـى به عندما يداهمنى التـفتـيش المفاجئ ، وإلا خصموا من راتبى أسبوعا غير منقوص، أيضا فالاصبع من

الحتمى أن أتقدم به مع كشف الجرد السنوى ، وإن لم أرفق الإصبع بالكشف لتعرضت لعقوبة الإيقاف عن العمل ، وقد أحول إلى النيابتين الإدارية والعامة متهما بتبديد عهدة صارت من ممتلكات الدولة . .

ينسحب مصطفى من أمام الموظف ، لا ينتظر أن يسمع منه ما تبقى من شروط ، يعود إلى زلطته يمتطيها ، يصرف عن ذهنه تماما حكاية البرقية نتيجة لما سيترتب على إرسالها من مشاكل ، وتشوهات لاعضاء جسده . . يقتنع أن البديل الملائم هو البريد الجوى المستعجل غير المسجل مقتديا بما فعله الدكتور بطرس إذ اختار بدلا من البرقية أن يرسل خطابا إلى **(فارس نويز وزير خارجية لبنان بصفته الأمين العام للأمم المتحدة ، يرفض فيها طلب الحكومة اللبنانية بتشكل لجنة دولية لتقصى الحقائق حول قيام اسرائيل بسرقة كميات كبيرة من المياه اللبنانية حسبما جاء فى تقرير اللجنة الإقتصادية والإجتماعية لغرب آسيا التابعة للأمم المتحدة) . .**

يرجئ مصطفى إرسال الخطاب إلى السيد الدكتور الأمين لما بعد مستجيبا لرغبته فى أن ينمق خطابا يتوجه به إلى (قلم الكتاب بمحكمة سوهاج الابتدائية مهنئا ومباركا على الاهتمام بإرسال خطابهم إلى شركة المبارك مع تنبيه قلم الكتاب على المحضرين بأن يخطروا الشركة المذكورة بأن تورد ثلثمائة وخمسين الفا لخزينة المحكمة فرق رسوم على المائة الف جنيه المحكوم بأن تستردها شركة المبارك من شركة أخرى مدينة لها بهذا المبلغ مع الزام الشركة المدعى عليها بسداد المبلغ المستحق والرسوم) .

يتمنى مصطفى لو تمكن من الذهاب إلى سوهاج ، ليسلم على أفراد قلم كتاب المحكمة فردا فردا مثنيا على حسن تصرفهم فلو أنهم توجهوا بهذه المطالبة إلى الشركات المدينة لضاع على خزانة الدولة المبلغ، فكيف يقبل ضميرهم أن يتركوا الشركة الدائنة الثرية ، ويتوجهوا إلى الشركة المدينة المفلسة . . يلصق مصطفى على المظروف بدلا من الطابع العادى

طوابع البريد المستعجل ، يضع المظروف فى صندوق البريد، ثم يعود إلى الشاطئ . . يستقبله سكون الرمل ، وصمت البحر تشجعه سحابة خضراء تغطى قرص الشمس على الخروج من بنطاله « الشورت» فيخرج ، وطرح قميصه ذا الأكمام الطويلة عن كتفيه ، فيطرح . . يبدأ فى الشقلبة فوق الرمال الزرقاء . . تخرج من بين أمواج المتوسط قناديل البحر وسرطانته تشاركه الشقلبة ، تنظم أسراب اليمام البرى ، وكتيبة من عصافير الجنة إلى مصطفى . . ومع الكثرة العددية للمتشقلبين لا يصطدم جسد بجسد يسرع مصطفى فى الحركة ، يسرع الجميع ، يبطء يبطءون . . من جهة النيل يقبل عليه هدهدان يحطان أمامه ثم يتجهان نحو الأبيض المتوسط يغوصان فى مياهه ثم يخرجان وهما يحملان قوقعة من سندس واستبرق يضعانها أمام مصطفى ، يتوقف عن حركاته ، يجلس فوق القوقعة ، يأرجحها الهدهدان فيتأرجح جسد مصطفى ، تنبسط أساسيره ويضحك عاليا ، تضحك الطيور والقناديل والسرطانات ، يشدو مترنما بلحنه غير المفضل ، يشاركه الشدو الجميع . . تتمزق السحابة الخضراء ، ثم تتفرق وتتلاشى فيسطع قرص الشمس من قسوة الحرارة تعود الطيور إلى أعشاشها ، وتغوص القناديل فى موج البحر وتلجأ السرطانات إلى جحورها . . يهمس هدهد من الهدهدين فى إذن مصطفى : أما سمعت ؟

: عن ماذا ؟

: عن هذا الذى قاله رئيس الهيئة .

: أى هيئة ؟

: هيئة قناة السويس .

: وماذا قال المهندس رئيس هيئة قناة السويس .

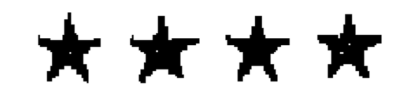
: (قال المهندس عادل عزت فى حديثه لصحيفة كويتية نحن فى قناة

السويس ليس لـنا اعتراض على تعـامل دولة عربيـة مع إسرائيل استـيرادا وتصديرا).

ينشرح صدر مـصطفى مما سمع فها هى ذا فرصتـه الذهبية التى طال انتظاره لها تقـبل عليه ، دانية قطوفهـا ، وعليه دون تردد أن يستـثـمرها بما تبقى معه من مـال فيفتتح مكتب للاستيراد والتـصدير بالمنطقة الحرة «بميناء دمياط الجـديد» يتعلق مصطفى بمنطاده ، لكن الريح اللبش » لا تسـعفه ، يتخلى عن فكـرة المنطاد ، ويفكر فى الطريق البرى ، يركب زلطتـه تاركا بنطاله الطويل، وقمـيصه النصف كم أمـانة لدى الهدهدين . . تستـجيب الزلطة لقيـادة مصطفى فتسرع تسـابق كل العربات الخاصة والعـامة، النقل والاتوبيس ، التاكسى والميكروباص وعند أول منـحنى يقابلها تنزلق الزلطة فتخرج عن الطريق الاسـفلتى لتستقر على جانب من جوانبـها فوق التراب الناعم لجانب الطريق . . يحول بينه وبين السقوط فى الترعة شجرة منزوعة الأوراق كـثيـرة الأغصـان ، يندب مـصطفى حظه ، ويسـأل لماذا لم تكن الشجرة كحائط الزمن **(«وحوائط الزمن الآتى مكتوب عليـها لكل الأحفاد يمموا وجوهكم صوب سرايـيفو وإن كـانت باقية فهى الحاضرة وإن تلاشت فهى غرناطة ولا عـزاء لكم بعد الآن»)** . . . أيكون أقل شأنا من سـرايـيفو وهل يضن الزمن على زلطته بحائط . .

يتذكر أنه إن وقف هكذا ليندب حظه ستـفوته («قرارات لجنة التسليح والأمن الإقليمى التى تجتمع بالدوحة بمشاركة مصر وإسرائيل» .) .

كمدا يركل مصطفى زلطته غيـر آسف عليها ، يراها وهى تهوى نحو الماء فيتـابعها وهى تغوص فى طمى القاع . . لا يصرف بصـره عنها حتى تختفى . . .



عوت الـكلاب ، خرجت من خلف الأشـجار مكشـرة عن أنيابـها، برقت عيونها ، نشـرت مخالبها ، عقصت أذانهـا ، تدلت ألسنتها ، سال لعابها ، رفعت ذيولها ، أقبلت عليه وسدت الطريق.

تصادمات .. ولا اختيار

. . . لأننى كنت بين الحين والحين أسعى عامدا متعمدا كى أفعلها ، لهذا فقد كان من الطبيعى بحكم خبرتى المكتسبة أن أستشف من هو بدوره القادر على أن يفعلها ، . . من هيئته وملامح وجهه تبين لى أنه ممن بامكانهم أن يفعلوها ، وإن اختلفت الدوافع عند كل واحد منا . .

كلانا كان يجلس فوق مقعد معدنى ، قاعدته من لدائن البلاستيك الصلب ، أما ظهره فمكسوا بجلد غير طبيعى تطل من خلال ثقوبه المتعددة شرائح من «الاسفنج الصناعى». مكان جلوسنا ، حجرة انتظار الرجال بعيادة طبيب أسنان أجره مخفض . . مقعدانا ، كانا متواجهين تماما لا يحجبنا عن بعضنا البعض أى شئ ، حتى تلك المنضدة الخشبية المغطاه سطحها «بالفورمايكا» والمفترض أن تتوسط بوجودها بين مقعدينا.

لتوسطهما الحجرة تخلت عن مكانها الطبيعى وإن ظلت محتفظة بالغرض الأساسى من وجودها ، ففوق سطحها الأملس تناثرت مجموعة من المجلات مختلفة الأحجام متفقة فى «القدم» ، وتمزق بعض الصفحات، أما القليل من الجرائد القومية الحكومية والمعارضة والجديدة نسبيا قد احتلت ركنا من الاركان الاربعة للمنضدة واستقرت به لا يشاركها فيه مشارك ، ما تبقى من الموجودات فوق السطح الأملس كان ، ثلاثة كتب لا غير ، تراصت فوق بعضها البعض على هيئة وشكل هرم مقلوب، عليه ثقاب ، جزء من مسطرة أو شئ مشابه . .

عمره . . أنا قدرته بأنه يفوق عمرى بعشر سنين، فوقها شهور سبعة، وأسابيع خمسة ، وأيام ثلاثة وبضع ساعات وحفنة من الدقائق ، أما حجم جسده . فقد كان واضحا حتى للعيون الكلية أنه ضعف حجم

جسدى ، ليس بفعل السنوات العشر وتوابعها بل لطبيعة يتميز بها عظم الكتفين عنده .

لون بنطاله ، بنى مميز بخطوط طولية عريضة متباعدة . . القميص من نفس اللون وإن كان من هذا « الموديل » الخالى من الأزرار المستعاض عنها برقية ولكنها من لون مختلف . .

بنطالى أنا أزرق يقترب لونا من زرقة ماء محيط ، القميص له نفس اللون خيوطه بكاملها من مغزول القطن . . له صف كامل من «الأزرار» الصدفية عدا الأخير المستبدل «بزرار» من البلاستيك لكنه من ذات الحجم الصغير وذات اللون الأبيض وللقميص ياقة . قبل أن أحدد أنا شكل ولون وماركة حذاءه اكتشفت أنه قد فعلها لتوه وأنه مهيأ فعلا كى يعيش حالة (إختراق / إستجابة / مبادرة / اقتحام) كواحدة من هذه الحالات التى طالما عشتها ، ولكن ما نوع هذه الحالة تحديدا فهذا ما لم اعرفه فى حينه ، وهكذا اصبحت مطالبا أن أعد نفسى بأسرع مايمكن ، كى افعلها والحق به قبل أن يغيب عنى ، ولا أتمكن من الكشف لأى مدى أوصلته فعلته . .

توجهت بعينى نحو الجهة التى توجه إليها بعينيه ، كانت زاوية من زوايا السقف الاربع ، تحديدا الزاوية اليسرى الأمامية بالنسبة له ، والخلفية اليمنى لى . . كلفنى هذا الموقع الخلفى جهدا مضاعفا ، واحتاج الأمر من جانبى أن تستدير الرقبة استدارة لم تؤلمها وحدها ، بل سرى عامود الألم فى الكتف اليمنى وذراعها ، أما العامود الفقرى المحمل أصلا بالعديد من المشاكل منذ الصغر ، فقد غاص الألم فيه بكامله مع جزء غير هين من الفخذ الأيمن بعد فترة وجيزة بحكم الخبرة والممارسة تمكنت من تحديد النقطة التى استقر نظره عليها استجمعت نفسى واستنفرت كل قدراتى المخزونة لافعلها ، ففعلتها . . ظهر الثقب بالركن المحدد انزلقت من خلاله دون تردد ، أو أى خوف من مجهول ينتظرنى خلفه . . فى البداية كنت

متخبطا ، ثم انكشف لى المكان ، طريقا اخذت استدل عليه بما خلفته خطواته من آثار ، وبما شعته عيناه من ضوء . . طال بى السير ، فابتل القميص من غزارة العرق ، وخدش الحذاء أصابع القدمين وأعلى الكعبين . . ضايقنى بلل القميص فأبطأت من سيرى . . خلعته وعصرته لأفرغ ما تجمع فيه من ماء . . انجزت المهمة بنجاح باهر ، فسحبت الحذاء من القدمين، ثم قذفت به تجاه صندوق «زبالة» بدالى أنه فى متناول القذفة . . تابعت «فردتى» الحذاء وهما طائران . . استبقت «فردة» زميلتها وصولا فوق فوهة الصندوق فانتظرتها لتدخلا معا إلى جوفة . . شجعنى هذا النجاح وتلك الرمية الموفقة أن أخلع الجورب المخصص للمناسبات المبهجة والمحزنة لاقذف به نحو الفوهة . . نجحت الفردة اليسرى فى الوصول إلى الفوهة فهبطت إلى داخل الصندوق وهى تبكى فقد زميلتها ، التى أخطأت الهدف وسقطت إلى جوار الجدار الخارجى للصندوق . .

لم أوبخ نفسى على الاخفاق، بل هنأتها فوصول الحذاء بكامله ونصف الجورب يعد انجازا كبيرا يحسب لى . . اكتفيت بهذه الفترة التى انشغلت فيها عنه وعدت أبحث عنه ، وعندما التقطته عيناى ، رأيته مثلى بلا حذاء ولا جورب ولكن كان متفوقا على إذ تخلص من القميص ، ومع أن وجهه لم يكن فى دائرة الرؤية لعينى ، إلى أننى تأكدت أن البسمة تملأه بعد أن حقق هذا الانتصار على ، خلعت قميصى وصنعت صنيعا لم يجرأ هو أن يصنعه ، إذ تركت عامدا بطاقة اثبات الشخصية بالجيب العلوى الايسر ، ومعها خطاب تسلمته من ساعى البريد صباحا ، وما فكرت أن أفضه لأعرف ما المسجل فيه ، أخيرا أم شرا؟ . . ومع الأثنين تركت قلم جاف حبره أسود ونصف باكو نعناع . . أما الجيب الأيمن فقد حوى أوراقا تلازمنى ليل نهار، واعتبرها بقية من جلدى، انقلها من جيب قميص لجيب منامه ، ومن جيب منامة لجيب قميص، وهكذا . . طوحت بالقميص

خلف ظهرى ، ولم انشغل به أو أسأل نفسى هل ظل الجيبان حتى آخر لحظة بالاوراق محتفظين ، أما تخلصا منها ، واكتفيا بالبطاقة والأشياء الأخرى . . .

أسرعت الخطى لالحق به ، ثم استبدلت بالسير السريع العدو الأسرع تضاعف الجرى ، وقبل أن أقترب منه ويحازى كتفى كتفه توقف هو ينتظرنى ، وما أن وصلت حتى بادرنى .

: انك لمصطفى

قلت له : اسمك أنا بدورى أعرفه ، أعرفه كما سجله كاتب صحة البندر بشهادة الميلاد ، التى تمنح بالمجان مرة واحدة ، والتى معك الآن هى المستخرج الذى يسلم لمن يطلبه مقابل رسم . . حروف اسمك مكتوبة بخط ردئ ، ولون الحبر الازرق ، ونوعه الجاف . . اتبغى المزيد أم يكفيك ماذكرت؟

: ولقبك هو الأسمر

: لم تأت بجديد

: لأسرتى أنا لقب خفى غير لقبها المعروف ، ولا يعرف هذا اللقب الخفى إلا الخاصة وأنت لا تعرفه

: بل أعرفه ، وأعرف منذ متى التصق بكم ، بداية ظهوره كان مع الجد السابع لك لفعله نكراء فعلها ، فاقترب بأذنك المفلطحة من فهمى ، لاهمس لك به حتى لا أخدش سمع الآخرين ، أما اسم الشهرة لجدى السابع فهو اسم حميد لصفة حميدة ، لهذا فنحن نفخر به

: . . يا أسمر ابتعد عنى ، ودعنى اسعى لما خرجت من أجله

: لن يكون لك هذا أبدا قبل أن أفهم وأعرف لم كان الخروج

: لن تعرف ولن أبوح ، فبوء بفشلك ، ومت بغيظك

لم أعبأ بكلماته المستفزة ، إذ كنت مطمئنا أن لدى من وسائلى الخاصة ما يمكننى من معرفة السبب ، وأننى لن أعجز عن إيجاد الوسيلة . . .

حول دماغه درت أكثر من مرة متفحصا حتى اكتشفت منطقة غير مأهولة بالشعر . . منحولة لا تكاد تراها إلا بالعين المدققة . . قفزت اليها وإذا أصبحت فوقها آمنت موضعا لقدمى قبل أن أتفرغ للبحث عن منطقة بالجلد ضعيفة أثقبه وأمرق من خلاله إلى الداخل ، ثم التقدم نحو مرحلة ثالثة ، وهى النفاذ من عظام الدماغ . . صدنى عن التنفيذ تحصينات معقدة زرعها بمهارة وأحكام فوق الجمجمة وكما توهمت أننى قد عثرت على النقطة الصالحة للولوج منها وجدته هناك واقفًا متربصا ينتظرنى وقد أخرج لى لسانه . . فأرتد أنا منسحبا إلى المنطقة المنحولة ، التقط أنفاسى واستعد لمحاولة جديدة . . . حمست نفسى مذكرا اياها أن على أن أنجح كما نجحت من قبل عندما تمكنت من «الصعود إلى القصر» عبر اللوحة «المعلقة» بحجرة الاستقبال

(١) ، حيث تمكنت فى النهاية من دخول حجرته الحصينة ، متخطيا كل الصعاب التى اعترضتنى . .

باغتنى قائلا

: نجاحك هناك لا يعنى بحال نجاحك هنا

اكتفيت «بالهمهمة» ولم أعلق بكلام

بتكرار المحاولة اقتنعت أن الخطة التى وضعتها ساذجة وأننى أبدد وقتا أنا أشد ما أكون حاجة إليه . . وتنبهت أن فكرة التمسك بالتواجد فوق

هذه النقطة من الدماغ لم تعد تمثل بالنسبة لى مكسبا حقيقا يحسب لى ، بل أن فكرة النفاذ إلى الداخل من خلال قشرة الدماغ فكرة على أن أطرحها تماما من ذهنى . . أوجعتنى الهزيمة وسرت مرارة مذاقها من اللسان إلى باقى أعضاء الجسد . . أثناء بحثى من وسيلة مناسبة ومفاجئة تقودنى إلى هذا الكائن المستقر تحت قشرة الدماغ بخلاياه التى تعد بالملايين وبشبكة اتصاله التى تصدر الأوامر والنواهى ، كان لزاما على أن أجوب كل الممرات حتى أصل إلى الخلية المطلوب السيطرة عليها ، وأنا أفكر فى طول هذه الشبكة وامتدادها الكبير بما يمكنها أن تحيط بالأرض أكثر من مرة ، كاد هو أن يفعلها وينجح فيما فشلت أنا فيه ، فيقتحم قشرة الرأس ويصل إلى الخلية المنشودة ، لأخسر أنا كل جولاتى السابقة ويفوز هو بالضربة القاضية، انهكنا الصراع بأساليبه المتعددة ، وفى النهاية ترك هو مرغما تلك النقطة التى اقتحمها والتى جاء موقعها أسفل السالف الايمن لى ، انسحب كل منا إلى موقعه الخاص السابق ولم يبق لأحدنا نقطة تمركز بغير أرضه ، ابتدأ يلتقط انفاسه ، وكان هو الحالى ، مع اختلاف فى درجة ارتفاع وخفوت الصوت بفعل الحجم المختلف بيننا ، سأل

: أمصر أنت أن تعرف ؟

: ولن أتراجع

: ستخسر

: فى : لقاء السلطان «توهم السلطان مثلك أنه قادر على » (٢): الانتصار على ، عندما يناقشنى «بالحفل السنوى»

: أنا غيره

: حتى إن كنت فأنا «الشاطر» أنا من غيرها بالأمس قانون اللقاء واليوم أفعل

: القوانين اليوم غيرها بالامس ، ولن تجد فيها ثغرة واحدة تنفذ منها

: دعنا ننتظر . . ولنرقب ما سوف يحدث

نطقت الممرضة باسمى «مصطفى الاسمر» لتعلمنى أن الدور قد حل على ، لم أبد حماسا للدخول ، حذرتنى إن أنا استسلمت للكسل ، ونبهت على أنها لم تمنحنى إلا نصف دقيقة كمهلة ، فإذا انقضت ولم ادخل فستحرمنى من دورى ليستفيد به التالى لى . . لم التفت لكلامها اقتربت من أذنى وصرخت وقد تخلت عن صبرها

: أرنى نحاستك . . . « واصلت الكلام» صاحب النحاسة رقم ٦ يستعد .

كنت أعرف أنه هو فقد كانت تطل من جيب قميصه ذى الرقبة لم تستفرنى برقمها التالى لرقمى بل بحجمها المضاعف كحجم جسده ، ابتدأت النحاسة تتنامى دون توقف ، بعد حين تشكلت على هيئة رئة لتصنع ساترا واقيا اخفى عنى الكثير من مواقع القميص . . لمحت الممرضة النحاسة فتحركت متوجهة نحوه ، أشارت له أن أدخل ، انفعلت أنا وحذرتها من سلوكها المستفذ أنذرتها أنها إن تمادت فيه فسأقدم فى حقها شكوى مكتوبة ارفعها إلى الطبيب ليتصرف هو معها سألنى.

: أتغضب ممرضة ؟! . . عجبا . . . حسبتك أعقل من هذا

: جمالها لن يشفع لها عندى .

: لكنها ممرضة

: أعرف واذكر تماما ما باح لى به صديق طبيب أن لبعض الممرضات دون سواهن من نساء العاملين خاصية عطاء مميز له مذاق خاص لا يستطيع رجل تعامل معه أن ينسى أبدا مذاقه الممتع، وعلمى بهذا لن يجعلنى أغير من موقفى.

: تعرف كل هذا ثم تعاملها بكل هذا الجفاء.

: لعلمك هي في النهاية واحدة منهن، الأمر يتساوى عندى ، بل إن كشف لى هذا الصديق عن مزايا أخرى خافية على ماغيرت من طريقة تعاملى معها.

: أهو أخصائى الحنجرة ؟

: هو.

: هذا الذى يكتب شعرا .

: هذا

للمرة الثانية كدت أقع فى فخاخ الاعيبة وحيلة ، إذ غافلنى واتخذ طريقة سريا . . لكننى هذه المرة لم أبذل كبير جهد للحاق به كما فعلت سابقا . . لم أدعه يغيب عن عينى ، ولم يستره عنهما اكتظاظ القاعة بكبار المسئولين . . بيسر اوجد لجسده مكانا مميزا بالصف الأول الأمامى ، وهكذا فعلت أنا . . سألنى : يا أسمر أترى هذا البرغوت؟

: كف عن حيلك والاعيبك

كرر السؤال . . كانت لهجته تشى بالصدق وتدفعنى أن أجيب

: رأيته فى ذات اللحظة التى رأيته أنت فيها

: إذن لن أريحك واحدد لك موقعه

: أريحك أنا واخبرك أنه مستقر فوق عقدة رباط عنق هذا الاهطل الجالس فوق المقعد العالى ظهره متصدرا المنصة.

: لكنك لا تعرف عما يبحث وينقب

: بل أعرف متى وأين غابت الورقة التى يبحث عنها

: الورقة اختفت ولم تغب

: هكذا يتوهم السفهاء أمثالك ، هى ورقة من الملف

: الملف ؟!

: نعم الملف . . ملف «الأشياء المريبة» (٣)

: عندما استدعانى ، فقد «تم استدعائى بطريقة ملؤها الاحترام»

: لكنك لم تصنع صنيعى أنا تعمدت أن تأتى كل الورقات التى طلب منى أن أكتبها ناطقة بخطى أنا . . وأنت استجبت له وارتضت أن تكون ورقاتك كلها متطابقة مع ورقة الملف . . اتنكر . . ؟

نحى متصدر المنصة البرغوت بمقدمة الاصبع السبابة لكفه اليمنى ثم القى نكتة من نكاته واصل حديثه عن (الخصخصة / الفرص الضائعة مع أبناء العم / النظام العالمى الجديد / قابلية كل المشاكل للتفاوض / ارتفاع معدلات النمو وانخفاض عجز الموازنة / مؤشرات تدل على الاقتراب من الخروج من عنق الزجاجة) طالت الاستشهادات وفى النهاية بشر الجميع بزوال السنوات العجاف وبزوغ فجر السنوات الخضر . . . تسلل من الصف الأول الأمامى صوت خافت يعلن عن المبايعة بولاية ثالثة . . استجابت له باقى الحناجر مؤيدة . . ضبطه طافيا فوق تيار الهتاف متصدرا له . . . . . . قالت الممرضة بتحذير حقيقى.

: فى هذه الحالة أنا لا استطيع أن أصنع لكما شيئا ، وأمام تمسك كل واحد منكما بمكانه واصراره على أن يكون هو أول الداخليين فلا حل يصلح لتخليصكما من انحشاركما هذا إلا استئجار رافعة من نوعية خاصة، وأنا لن أبدد نقودى فستأجرها ، يبقى الحل البديل وهو استدعاء نجار حارق

يوسع من فتحة الباب وهو حل لن يقبل به الطبيب أبداً ، إذ سيشوه مدخل حجرته . . فتصرنا فورا لتضعا حلاً لهذه المشكلة . . وإلا . .

نحاستى كما هى محتفظة بحجمها كما تسلمتها من يد المرضة ، ونحاسته آخذه فى التنامى ، وتصنيع الدرع الواقى لصدره . . بادرنى ونحن متو اجهين .

: مصطفى . . أطرح من ذهنك فكرة النفاذ

: بل أفعلها . . فلا تظن أن مجرى الماء الذى يفصل بيننا بحام لك منى ، ولا تحسبن الدرع النحاسى الذى تتحصن خلفه يعوقنى عن تحقيق النجاح . . فكما يصلك صوتى اصل إليك .

: الفشل يكون نصيبك ، لأضحك أنا عليك ، ويكون ضحكى عاليا .

: بل النجاح والضحك لى .

لم أتوقع منه أن يقفز هذه القفزة الخارقة ، لهذا فقد ارتبكت حينها لا لشئ . إلا لكونى لا أعرف السباحة ، ولا أجيد الغوص . . لكننى حسمت أمرى وقفزت خلفه . . تلقنى تيار الماء وسحبنى إلى قاع المجرى ، قهقهة . . لم أبادله القهقهة حتى لا ينكشف أمرى فيعرف كم كمية الماء التى ابتعلتها . . اتجه سابحا نحوى وأنا على نفس وضعى مذ هويت إلى القاع متشبثا به . . وعندما أصبحت عنقى فى متناول يديه مدهما فى محاولة من جانبه لخنقى ، لأكون أنا بهذا أول من يموت خنقا بأسلوبين مختلفين ، عظام الرقبة وامتلاء الرئتين بالماء .

أخذته نشوة الاحساس بالاقتراب من بلوغ الهدف وتحقيق الفوز فقلت لنفسى وأنا أجاهد للخلاص من قبضة يديه ، هى فرصتك الآن يا مصطفى

فلو أنك غـامرت وهو مشـغول عنك بنشـوته الكاذبة ، لحسـبت لك هذه المغامرة ، ولـو أنك بذلت الحيلة كى تنفذ من خلال هذا الشـقب ، البادى لك بحدقة عينه اليمنى وحالفك الحظ لتمكنت من الوصول إلى خلايا المخ تتحصن بها ، وتكون هناك سيـد الموقف. . كانت الفكرة مناسبة ولم يكن أمامى غير المغامرة بديلا افعلها لأنجو . . ففعلتها ونجحت . .

خرج مـرغمـا من الماء بجسـده المضاعف لجـسدى لكنه لم يـقدر أن يخرجنى من بين خلايا المخ ساعدتنى الممـرات العديدة الممتدة والمتداخلة أن اتسرب منه كلما اقترب . . سألنى مصالحا.

: « أكنت هناك » ؟ (٤)

: كنت

: وشاهدت ؟

: شاهدت

: كل الأحداث ؟ : كلها

: منذ البداية تواجدت ؟ : حتى النهاية

: إذن فلتقصص على ما رأته عيناك ؟

قلت له

: لكن هناك غير « هنا » . . لن اسمح له هنا « أن يطل على الجميع بشخصه من الشرفة ليحييهم بوجه باسم وقبضتين مضمومتين « أنا اليوم من يكشف لهم عن السر الحـقيقى ، لا السر الكاذب الذى وعـدهم بالبوح به . . .

: - سأطلب لكما النجدة ، ولك أنت بالذات أفعل هذا

قال الطبيب عبارته وهو يقصدها ، ويقصدنى . . . عقب .

: أخبرتنى الممرضة الخجول أنك مـذ أتيت تتعمد أن تخلق لها الكثير من المشاكل والمتـاعب ، لهذا مع النجـدة أستدعى لـك أنت وحدك رئيس وحدة الاداب بشخصـه ورتبته العالية ، فالممرضة المحت لى على استحياء أنك لم تكف للحظة واحدة عن مـلاحقتها بغـزل فاضح ، ولم تتورع عن خدش حياءها بكلام بذئ.

أبتسم للطبيب وقال له .

: لقد نصحته فى حينها أن يتوقف عن مضايقتها ، لكنه لم يرتدع ، بل اشعل نصحى له رغبته الملتهبة فيها ، فامتدت يده الأثمة المستحقة القطع إلى مناطق بعـينهـا من جسـدها ، والمسكينة حـائرة لا تدرى كـيف يكون الخلاص منه .

قلت : كلكم تعرفون أن رقم نحاسته يأتى ترتيبها بعد رقم نحاستى، نحاستى هى الأصليـة ونحاسته هى المقلدة . . لهـذا فمن الواجب إن كان رجلا أن يكف عن ريائه ، ونفاقه المفضوح .

سألنى الطبيب : . .

: دلنى على هذا الأبله الذى أشار عليك أن علاجك عندى لو عرفت اسمـه فسأشكوه أمـام النقابة . . أنت بحـاجة إلى طبـيب عظام ، بل قد يكون علاجك الحقيقى أن تحتجز بقسم الطفيليات .

: أوضحت له هذا ، ونبهتـه أنه اتى إلى هنا بطريق الخطأ ، فاتهمنى ظلما أننى تصدرت كوكبة الهاتفين.

: إن صح كلامك ، وتأكدت بنفسى من صدقك لكان من واجبى أن اتلفن فوراً قبل النجدة والآداب والمباحث العامة فهى وحدها الأقدر على معالجته . .

★★★★

أثناء البحث عن تلك الخلية الحاكمة المسيطرة والتى لا يتم أى فعل إلا بإشارة تصـدر منها ، فهى وحدها المهـيأة تأمر وتنهى كدت أحـترق مرة ، وتتكسر كل عظامـى نتيجة صـدام مروع مرة ثانيـة ، بل لقد غصت فـعلا حتى صدرى بمنطقة رمال متحركـة ، لم ينقذنى من ابتلاعها لكل مفردات جسدى إلا بركان هادر انفجر فجأة فقذف بى خارجها . .

أخرجت من حافظتى الخارطة التى توصل إليهـا جمع العلماء واتفقوا فيما بينهم دون خلاف على أنها هى وحدها الدليل الوحيد الموضح لدروب المخ وطرقـه وممراته وقطعـوا بالتشـابه بين كل الامـخاخ فـكل المرتفعـات والهضاب والسهول الموجودة بمخ ما ، موجودة على نفس صورتها بكل مخ . . من موقعى تبين لى مدى كذبهم، فقـد كانت الدروب مختلفة تماما عن الدروب المسجلة بالخارطة ، وهكذا أصبحت مجرد ورقة عادية .

★★★★

أوحى صاحب النحاسة التالية لنحاستى لهذا الجالس على المنصة فوق المقعـد المميز أنه إن لم يسـارع ويمد له بيد العـون فإنه لن يصمـد إلى مالا نهاية أمام جـوسى خلايا مخه ، صرح دون موارية ، أن المسـألة بالنسبة له لم تعد أكـثر من مسـألة وقت لا أكثر ، بعدها سـيضطر مرغـما أن يرفع أمامى الراية البيضاء ويقر بالهزيمة . .

تلقى هذا الجالس فوق مـقعد الصدارة الإستـغاثة بجدية ، فطلب من القادة والخبـراء والاعوان أن يفعلوا كل الحيل لانقاذه . . فى البـداية رفعوا سعر الحاجيات الاساسية من عـدس وبصل وثوم وقثاء . . أبتسمت فشباك كهذه الشباك أهون من أن تصيدنى . . لم أعبأ وواصلت البحث عن الخلية الحاكمـة ، استاء منى من طلب لنفـسه الولاية الثالثة ، اسـتدعى الاعوان وأنبهم تأنيبا شديدا لكونهم لم ينجحوا بعد فى إيجاد الوسيلة التى يقدمون بهـا يد العون لصـاحب النحاسـة الدرع الذى كـان أول من نادى بالمبايعـة

بالجلسة المشتركة للمجلسين تشاور الأعوان والخبراء والمختصون واستحسنوا الفكرة التى طرحها « البنك » و «الصندوق » بأن يقسم مستهلكى الكهرباء والماء إلى شرائح . . فى البداية افترضوا أن الاكثرية من رعايا الديار ممن ينضوون تحت مظلمة الشريحة الأعلى ، وفى النهاية قطعوا بذلك . . .

★★★★

فور استلامى أول فاتورة استهلاك طبقا لنظام الشرائح الجديد ثقلت خطواتى ، انتهزها اللعين مرتدى القميص الخالى من الأزرار فرصة ذهبية فمكنهم من اقامة المتاريس وتشييد القلاع حول الخلية التى أسعى للسيطرة عليها فى وسط مخه ، ارتفعت القلاع واستعرضت المتاريس فساورنى الشك أننى سأنجح فى اقتحامها ونيل بغيتى . . .

★★★★

قالت الممرضة : الدور على المدعو مصطفى الأسمر «ثم سألت» من منكم هو مصطفى ؟

أجبتها : - أنا

: استسمحك أن تطلعنى على بطاقة اثبات شخصيتك

: هى بجيب القميص ، والقميص طوحت به خلف ظهرى ، بوسعك التأكد من الجالس أمامى ، صاحب البنطال بنى اللون إن تشككت فى صدقى . .

: مع أنك ترتدى القميص فلن أخلق من ادعائك قضية نختلف حولها ، اكتفى برخصة القيادة . .

: ماتعودت احملها أثناء تنقلاتى . .

: إذن جواز السفر يغنى .

: لا أنوى مغادرة الديار ، ولهذا لم أفكر بعد فى استخراجه.

: ما رأيك فى بطاقة التموين ؟

: لم يعد لوجـودها عندى من معنى فتركـتها عند بقالى التـموينى، اسعار السلع خارجها تتساوى تماما مع اسعار المقررات المربوطة عليها .

: فى ظنى أنك لن تجد حـجة تعتـذر بها بالنسـبة «الكارنيه» عـضوية اتحاد كتاب ، فمن المفترض الا يفارق جيبك من باب الوجاهة والأبهة .

: منذ تسلمته تركته داخل كتاب ، ثم نسيت عامدا اسم الكتاب .

: افعلهـا إذن على مسـئوليتى واسـمح لك بالدخول للتـأكد أننى لا أتعنت معك .

رحب بى الطبيب ، قادنى بيده نحو المقعد ذى الظهر المتحرك والمحاط بعديد الأجهزة ، قلت له بعد أن رجانى أن أفتح فمى على سعته .

: أنا أبغى الحصول على مقاس جديد لعدسة منظارى الطبى.

: أنا الأدرى بما يلزمك ، لا أنت .

: لافته الباب الخارجى تؤكد أنك دكتور عيون.

: لا تثقل على خلايا مخك بأمر كهذا . . تأمل هذا المخمس الحامل لأسمى ، أنه يقـول غير هذا . . بامكانى أن أحضـره لك من فوق المكتب لتراه عن قرب .

ضروسى وانيابى وأسنان « كلها تعمل بكفاءة منقطعة النظير .

: من يقطع بهذا أنا لا أنت ، سأخلع لك من كل صنف اثنين ، ثق أنك لم تشـعر بأى ألم ، لن يسـتغـرق الأمر أكثـر من دقائق ، فـأنا من المشهود لهم بالمهارة وخفة اليد .

: حل عنى قيودى التى أوثقتنى بها إلى المقعد .

: عن أية قيود تتكلم ، أكيد البـنج قد ابتدأ يعمل عمله ويؤدى دوره المطلوب ، ما تحسبه قيودا هو مجرد خيال .

: سأمزق حبالك لالحق به .

: أترى هذه التفاحة ؟ (٥)

: عن أية تفاحة تسأل ؟

: انظر تلك التى هناك .

: كلا .

: كيف ؟! إنها واضحة تماما .

: لكنى لا أراها .

: عجبا !! . .

نزعت المرضـة عن جسدها البـالطو الابيض فبان رداؤها التـحتى ، عبارة عن مايوه يتكون من قطعتين لكل قطعة لونها الخاص .

: أظنك بوسعك الآن أن تراها .

: أرى ماذا .

: وهل هناك غيرها ، التفاحة بالطبع . . دقق ترى .

:ارفع يدك عن فمى .

: لا تخف سـأكتـفى اليوم باقـتـلاع ضروس الجـانب الأيمن العلوى فقط، وإلى الغـد ارجأ اقتلاع العين اليمـنى حتى أعد لها حشـوا مميزا من

البلاتين سأقدمه هدية لك منى ، وسيكون حشوا جيدا يمكنك من رؤية كل مايدور فوق المجرات . .

★★★★

بزاوية السقف اليمنى بحثت عن الثقب ، لم أجد لـه وجودا ، قام متجها نحو الطاولة فسحب أضخم كتاب من الكتب الثلاثة المستقرة فوقها . . خاطبنى من خلال الممرضة .

: الثقب أغلقته منذ زمن بعيد وصنعت غيره قولى له أنه الآن سجينى فإن خرج من مخى أدله أين مكان الثقب الجديد.

: غادرت إلى حين خلايا المخ فبان الثقب بموضعه الجديد نفذت من خلاله فوجدتنى داخل حجرة الانتظار وكان هو هناك فوق المقعد جالسا ينتظرنى .

فأجابنى قائلا .

: هو يريدك .

: لماذا ؟

: ومن أين لى أن أعرف . . كل ما عندى من معلومات أننى أحمل لك تصريحا بمقتضاه يمكنك مقابلته ، وقد حدد لك بالتصريح زمن ومكان المقابلة . . .

: تظن أننى أقبل أن أكون واحدا من حاشيته .

: قابله واعرف بنفسك كل شئ .

استجبت لجرأتى ووافقت على الذهاب معه . . اختصارا للطريق قادنى إليه عن طريق لم أره من قبل ، بدايته الثقب. . عندما رآنى صرف الجميع لنبقى نحن أنا مصطفى الأسمر وهو هذا الذى لم أتمكن فى البداية من تحديد شكل ولون وماركة حذاءه . .

ناداني باسم غير اسمى اعترضت ولم أخف اعتراضى.

: اسمى مصطفى وليس من حقك أن تسلبه منى حتى إن منحتنى مقابل هذا أجمل اسم فى الوجود .

صفق . . دخل اثنان من أفراد السكرتارية استنتجت هذا من طريقة حديثهما ولباسهما وأسلوب تعاملهما معه . . كان كل واحد منهما يحمل «صينية » من الفضة الخالصة فوقها بدلا من الأكواب مجموعة من الأوراق . . قال لى .

: كل هذه الأوراق تتعلق بشخصك ولك أن تتأكد من هذا ، كلها أيضا تقطع بصحة الاسم الذى اطلقته عليك ، هى كما ترى مجموعة من الأوراق المتباينة حجما ولونا وشكلا . . بينها ستعثر على شهادة نجاحك بالمرحلة الابتدائية . . وذلك الصك الموقع منك سدادا لآخر قسط تبقى عليك من ثمن البوتجار المسطح . . وبالضرورة ستكتشف أوراقا غاية فى الغرابة ، بعضها يملأك بالفرح وبعضها قد يثير دهشتك أو يغمرك حزنا . . .

لم يتوقف عن الكلام سحبنى كلامه إلى حالة أقرب ما تكون إلى النعاس وما هى بنعاس ،أاصبح همى وغايتى و«منى عينى » أن أحافظ على جفونى مرفوعة عن حدقتى عينى لانفلت من الوقوع فى مرحلة النوم العميق . .

وضع ساقا فوق ساق ثم مد الساق العليا نحوى فقدرت أنا مصطفى الأسمر أن مقاس نمرة حذائه يتجاوز نمرة حذائى برقمين على أقل تقدير . . أخذ يحرك قدمه المستندة على الأرض ، وهو محتفظ فى ذات الوقت بثبات القدم الأخرى المرتفعة عنها مما أوقعنى فى حيرة ، إذا كان من الصعب على أن أصنع صنيعه ، فأن يحرك إنسان قدمه الثابتة ولا تتحرك

معهــــا القدم المستندة عليهــا فهو أمر عـجيب ، قلت له والممرضــة واقفة جانبه .

: أنت تعمل على خلخلة تفكيرى لتصرفنى عن متابعة الأهم .

: صدقت يا «وذكر الاسم الذى أطلقـه على طالب الولاية لمرة ثالثة» فيما قلت ، أفعل ذلك بقدمى حتى أصيبك بالكمد والإحباط .

: لن أحبط فأنا مصطفى .

: ستحبط إن عرفت أننى صنعت ثقـبا جديدا وهو الثالث . . فعلت هذا وأنت تتابع حركة وثبات قدماى .

★★★★

وضع الطبيب فى كفى حدقة البلاتين مستفسرا .

: ما رأيك أيناسبك هذا اللون أم تفضل عليه لون الذهب ؟

استـأذنت الممرضة من الطبـيب أن تتخلى لحرارة الجـو عن قطعة من قطعتى لباس البحر . . . سمح لها مرحبا ومشجعا .

قال من يفوق رقم حذاؤه رقم حذائى بنمرتين أو أكثر ؟

: أنا الأدرى بما يصلح له والأعرف ، لون العقيق الأحمر هو خير لون .

★★★★

أمر مستشاريه أن يخلوا له القـاعة من الجميع إلاى حتى لا يطلع أحد غيرى على المسجل بالأوراق المرصوصة ، ولتكون أمامى فرصة الانفراد بها وتأملها ورقة ورقة . .

قبل أن تنطق الممرضة بحرف لتستأذن الطبيب لثانى مرة كما أفصحت حركة شفتاها اذن لها مستحثا ومستعجلا .

انبثق بالخاطر ما يشبه الومضة الخاطفة أنه مهما تفنن الجالس أمامى فى صنع الغريب من حركة ساقيه / ومـهما قدم الطبيب من حجج لاقناعى أن البلاتين فيه خيـرى / ومهما اطلعنى الجالس فوق المقعد مـحصنا بمستشاريه من أوراق مؤكدا لى أنها تخصنى / ومهما استأذنت الممرضة . .

أكدت الومـضة الخاطفة لى أننى أنـا مصطفى الأسمر رغـما عن كل هذه (المهمهات) فسأهتدى مهما طال الزمن لمكان الثقب .

---

(١) الصعود إلى القصر : قصة من مجموعة الصعود إلى القصر (هيئة الكتاب)

(٢) لقاء السلطان : قصة من مجموعة لقاء السلطان (رابطة الأدب الحديث)

(٣) الأشياء المريبة : قصة من مجموعة غوص مدينة (هيئة الكتاب)

(٤) هنا : قصة من مجموعة هنا (تحت الطبع)

(٥) بغال : قصة من مجموعة حيوانات (هيئة الكتاب) ٢١/٤/١٩٩٣

تداخلات .. ولا مفر

(١) وأد فكرة النظر خلفا ، تماسك ليستمر . .

حاولت الرقبة الإستدارة . . قيدها .

تهيأت القدمان للعدو . . ثبتهما .

توقع الظهر تلقى طعنة خنجر / طلقة مسدس / ضربة عصا . .

نصبة عامودا مرئيا قائما منبسطا .

(٢)   (سآل)

متى عدت ؟ . . لم أذهب من قبل لأعود

ألا تراجع نفسك ؟ تذكر ، أنت نسيت لا محالة . .

لم أغادر موضعى لأعود إليه

أترك أخطأت ؟ صحح خطأك ، فالفرصة أمامك لا تزال مواتية . .

يقينا لم أخرج ، ولم أغادر ، ولم أذهب

منذ البداية أخترت البقاء هنا ، وعدم :   ترك المكان ، انزرعت فيه .

★★★★

(٣) يبدو الشارع فى جانب من جانبيه يشغى بالمارة ، ويزدحم بالعربات ، واجهات المحال تفهق بالأضواء ، والمتاجر تغص بالمستبضعين ، النسوة تتواجد بالشرفات ، واقفات إما للفرجة من مكانهن الفوقى على مايجرى من أحداث تحتهن ، وأما متحركات متحريات الأماكن المشمسة ،

ليضعن أغطية الأسرة فوق أسوار الشرفات للتهوية ، واختزان حرارة الشمس ، كن يتحركن فى نعومة تشوقا لليلة الأسبوعية المرتقبة . . يفصح الحوار الدائر بينهن ولمعان العيون وانسدال الشعر على الأكتاف أنهن تهيأن تماما ، بينما توارى الجانب الآخر ، فى العتمة والصمت ، المحال مغلقة نوافذ الحجرات موصدة ، أبواب الشرفات محاطة بخيوط عنكبوتية تفوق فى صلابتها أسياخ أعمدة خرسانية تحمل ناطحة سحاب ، الحوائط ضاع لونها الأول خلف أتربة موحدة اللون .

(٢) (سأل)

أنمت البارحة ؟ . . عيناى لم يغمض لهما جفن

كيف ؟ أتنكر وقد ايقظ غطيطك كل نائمى البلدة . .

عيناى ظلتا تبحلقان وهما مفتوحتان على سعتهما .

ماذا ؟! ، عجيب أمرك ، كل الأغطية تشهد أنك استغرقت فى النوم ، حتى المراتب نفسها تبوح بهذا . . .

عيناى كانتا تتنقلان بين الجانبين ، لم تغفلا للحظة

واحدة عن الحركة .

(٣) ★★★★

بالجانب المعتم / المترب / الموصد / المعنكب / المغلق / ظهر الدبوس . نعم الدبوس ، كان مستقرا فوق البلاطة ، تحديدا تلك البلاطة الأخيرة للرصيف ، قبل أن يتخلى عن امتداده المستقيم منحيا ومتخذا خطا مقوسا ، وكانت هى بمفردها البلاطة الوحيدة فى سلسلة البلاطات المتاح لها الاطلالة على الميدان ورؤيته .



(٤) أصل إلى نهاية الشارع ، وأتهيأ لدخول الميدان وقبل أن أفعل ، أتنبه لبشاعة تصرفى ، أقف ، أستدير ، انتوى أن أصحح ما يحدث من أخطائى .. يتخلى عامودى الفقرى عن تمام استقامته ينحنى فى اتجاه البلاطة ، تلك البلاطة الأخيرة المطلة على الميدان ، لم يكن الدبوس ذهبيا ولا فضيا ولا حتى برونزيا هو واحد من تلك الدبابيس التى يستعملها بسطاء الخياطين ليضموا مؤقتا بين قطعتين من قماش ولا يغفلون عن الدبوس ليلة واحدة حتى لا يترك بقعة الصدأ الشهيرة تلك التى تظهر أكثر وضوحا عندما يكون لون القماش أبيض ، وخيوطه من الحرير .. تقترب رأسى من البلاطة ، وتتحرك كفى لتلتقط أصابعى الخمسة الدبوس لا تجد له أثرا .

(٥) : (اقول لأسمى الذى ينادينى به خلق الله ، معقول يا مصطفى يا ابن الأسمر لا أثر له ، كيف ؟! أنت تعرف أنه لم يفصلك عنه لا زمانا ولا مكانا غير أقل من خطوة ، وجزء من الثانية فكيف ؟! كيف يختفى بهذه البساطة ؟! ، لا تصمت يا مصطفى ، ولتشاركنى التفكير ، علنا نصل للسر إن تسألنى يا درش أتطوف بهذا المكان ، وخلال هذا الزمان ريح صرصر عاتية لتأخذه معها ، وتحمله فوق جناحها ، وتصعد به نحو طبقا الجو العليا ؟ . . . أجيبك كلا حتى النسمة يا مصطفى لا وجود لها ، تستفسرنى أيمر بالمكان الآن سواء بعد الرؤية أو قبلها كائن ما ، طائر أو حيوان ، أنسى أوجينى ، اجيبك كلا .. وإن تستشهد بى يا أبا الدراويش كلهم ، اتشعر بهزة أرضية تزلزل المكان زلزلة تقدر أن تدفن الدبوس فى باطن الأرض ، أو تقذف به بعيدا بعيدا ، أسرع نافيا من أجل هذا أسألك أنت تحديدا ، يا مصطفى يا أسمر ، يامن تسكننى وتلازمنى فى صحوى ونومى ، يا من تجلس أمام مائدة طعامى يدك بيدى تطوف على « الأطباق والسلاطين والصحاف » وكل أشكال وأنواع والوان أوانى

الطعام والشـراب . . أين هو الدبوس ؟ . . أجب أو على الأقل بح لى بما تفكر فـيه ، إن لم يكن من أجل كـل ما أقـوله فمن أجل الحـذاء نعم من أجل الحذاء فنمـرته واحدة ، ومحيط الخـصر واحد ومقاس عـدسة المنظار الطبى واحدة ولون الشـعر واحد ، وسـرعة ترسيب الدم واحـدة ، وعدد نبضات القلب فى الدقيقة الواحدة واحدة فـلماذا تختار السصمت وتتمسك به ؟ لماذا لا تتخاطب معى يا درش ؟)

(٢) (سال)

أسمعت ؟ . . كلا

أتنكر والمكبرات لم تترك موقعا هنا الا احتله . . لم أسمع

أتحـسب أن انكارك يجـدى ؟ لن يشـفع لك فـالذنب ، والمسئـوليـة مسئولية أذنيك . .

أذناى بريئتان،

هما تلتقطان

بوضوح تام دبة

القدم اليسرى لنملة تسير على بعد ميل

(٣) ★★★★

بالجانب المزدحم / الشـاغى / الممتلئ / الفاهق / تتـوهج البلاطة ، تضوى . . تلك البلاطة المواجـهة لبلاطة الدبوس وتتوازى مـعها على خط أفقى واحد ، بريقها الساطع ينبأ عن طبيعتها ومكونات ذراتها ، هى سبيكة ذهب ، نعم ذهب عيـار ٢٤ قيراط أو ٢١ « بالميت » يقيس بعيـنيه أبعادها طولا وعرضـا وارتفاعا ، لا يغـفل أن يحتسـب الجزء المدفون منهـا بباطن

الشارع ، يخلص من حساباته المدققة فيقدر وزنها بخمسين كيلو ، خمسون كيلو فإن يجانبه الصواب ، يكون الخطأ فى جرامات معدودة نقصا أو زيادة .. يعود إلى حساباته المدققة الدئوبة ، يحول الكيلوات إلى جرامات صحيحة ، يسقط عامدا متعمدا من الرقم النهائى أنصاف الجرامات والدراهم .. على مهل يضرب مجموع عدد من الجرامات الصحيحة فى ثمن جرام الذهب وفقا لآخر نشرة تصدرها الوزارة المختصة ، ويلتزم بها عن طواعية تجار سوق الصاغة ، يتفرغ بجدية للعملية المعقدة الحساسة ، لا يسمح لنفسه أن يضعف أو يستسلم لرزيلة الجشع المزرية ، بل يتمسك بفضيلة القناعة تلك التى هى كنز لا يفنى ، عن زهد يرضى أن يكون الحساب على أساس أن الذهب عيار ١٨ لا ٢٤ أو ٢١ ينتهى من الحساب، يتبين له مقدار الثروة التى يقف فوقها وتدوسها قدماه ، يقرر أن يتخذ الأسلوب العلمى سلوكا ويتبع التفكير الواقعى نهجا .. يتأمل عيون المارة ويتفحص وجوه راكبى العربات ، يتابع خطى المستبضعين وحركة نسوة الشرفات ، يتأكد أن لا أحدا منهم يكتشف وجود بلاطته الذهبية ، يكرر محاولة التقصى والاستطلاع ، يطمئن أنه هو وحده من يرى ، وأنه هو وحده من يقف ، وأنه هو وحده من يملك ، وما من واحد سواه يواتيه حظ سعيد كحظه .. لثالث مرة يتفحص الوجوه والعيون والتحركات والتصرفات ، يملؤه اليقين أن سلوك الجميع كما هو لم يطرأ عليه أى تغير، نساء الشرفات يشمسن الأغطية وهن حريصات حرصا بالغا على تعريض نفس الأجزاء من أجسادهن لأشعة الشمس ، راكبو العربات يستمتعون «برجرجة» العربات لأجسادهم وماينشأ عن هذه الرجرجة من التصاقات المناطق فى الأجساد المتلاحمة بينما تسعى الأكثرية لتخلفها إن لم تفعلها العربات ، .. الباعة والمشترون كل يود أن يكون لأكثر شطارة والأكثر نصرا ونجاحا وهو .. هو وحده المهيأ للحصول عليها .. على بلاطته الذهبية ، يركز كل التفكير فى كيفية اقتلاعها من مكانها دون أن يثير انتباه

الآخرين ، . . يبعد عنه من أول وهلة فكرة البعد عن بلاطته ومراقبتها من بعيد ، والانتظار حتى يخلو هذا الجانب من الشارع من حركة الناس وتغلق المتاجر أبوابها وتترك النسوة الشرفات ويتمددن فوق المراتب ويحجبن بالأغطية المشمسة أجسادهن ، الأجساد التى تحررت من أكثرية الثياب ، انتظارا وتشوقا لهذا الذى يحدث . . يرفض الحل لأنه يعرف أن لا هذا الجانب من الشارع يخلو ولا كل النساء زوجات أو ما شابه . .

يراوده خاطر التوجه إلى مسئول كبير ، يهمس له بسر البلاطة الذهبية لا يدله على مكانها أبدا مهما يقدم له المسئول من اغراء . . ، لا يفعل قبل أن يتفقا معا على أسلوب توزيعها بينهما . . يؤكد لنفسه فى البداية أن يبدأ حواره معه فيعرض عليه أنه يتنازل له عن ربعها مقابل أن يصدر المسئول أمرا يعلن فيه أن هذا الجزء من هذا الجانب من هذا الشارع قد خصصه له كزوائد تنظيم ، ولأنه يعرف أنه يرفض العرض فعليه أن يرفع الربع إلى الثلث ولأنه يقينا يعرف أنه يرفض من جديد فعليه أن يهيأ نفسه ليتكلم معه كلاما كثيرا ، منه أنه هو وحده من يعرف مكانها ، وأنه هو وحده من يعلم الطريق المؤدى إليها ومن المناسب أيضا أن يلمح له أنه يفضل أن يتعامل معه هو تحديدا ولا يتعامل مع غيره من كبار المسئولين ، ويفصح له أنه يعرف أنه إن فعل هذا معهم تكون حصصهم أقل من حصته التى يعرضها عليه الآن بكثير الكثير . .

قبل أن يذكر العرض الجديد والأخير ، فلا بأس من تذكيره بالحكمة القائلة (العند يورث الكفر) ، والتغنى بالمثل الشائع " علىّ وعلى أعدائى " بعد صياغته من جديد ليصبح فى شكله الجديد "على وعلى أحبائى » لأنه منذ البداية يعتبره هو الحبيب ، وهو الأثير . . لايتحمس بما فيه الكفاية لهذه الفكرة فكل تجاربه السابقة مع أى مسئول كبير تجعله يحجم دون تردد عن السير مع هذا الخاطر إلى نهايته . .

مؤقتا ينحاز لفكرة الجلوس فوق البلاطة الذهبية ، فى محاولة من جانبه أن يحجبها عن العيون كأنسب الأفكار المتاحة وأكثرها واقعية لكن مقعدته الضامرة لن تخفى منها إلا النذر اليسير ، ويتبقى جزؤها الأكبر ظاهرا لمن يريد أن يرى ، ولمن يريد أن يعرف ، يتمنى أن تكون مقعدته أكبر حجما ، لا يرى بأسا أن يؤخذ من أماكن عدة من جسده ليضاف إلى مقعدته . .

(٦)

(قال مصطفى ، لهذا البدن الذى يسكنه مصطفى عن رضى إذ عان من سنوات طوال طوال . . قال مصطفى ، لبدن تحمله مصطفى وعايشه وسمح له بالتهام طعام ما جاء على "حس" اسمه ، وارتداء ثياب تخص اسمه ، والاستيلاء على كل مليم ورد بإسم مصطفى ، على أية صورة كاتب / شيكا / نقدا / حوالة بريدية . . قال مصطفى ، للبدن بما حوى من أعضاء ارتفعت من أسفل لأعلى أو سقطت من أعلى لأسفل . . قال للأصابع العشر المتواجدة بالقدمين ، ولمثل عددهم وهم مزروعون بالراحتين، قال للساقين وللساعدين . . قال مصطفى للأذنين وللعينين ، للرئتين وللكليتين وقال أيضا للفم والأنف . . وقال مصطفى الأسمر بكل الجراة للمخ وللقلب . .

قال لكل أعضاء البدن ، سواء جاء موضع هذا العضو أمام أم خلفا قال عن يقين لقد عرفت سر الدبوس . .

علمت أين ذهب ، وعرفت أين اختفى . . أدركت من أى مكان أتى . . أوضح مصطفى الأسمر للأذنين أنهما أخطئا السمع ، وأنه بالفعل قال ذهب ، وأنه قصد بالكلمة الحركة والفعل لا المعدن . . قال مصطفى ، للبدن . . الدبوس عرفت عنه الصغيرة قبل الكبيرة . . احطت بحكايته منذ

البداية ، الممت بكل المستور عنه .. قال مصطفى كشفت من أين أتى وفى أى زمان ظهر وعلى أى صورة تشكل »

(٢) (سأل)

سأل .. أجاب

سأل .. أجاب

سأل .. أجاب

تكلم تكلم

★★★★

(٣)

بالجانب الديوسي ، استقرت البلاطات كلها على الوضع المعروف عنها ، بداية من البلاطة الكائنة هناك بمدخل الشارع عند بدايته . . . كل البلاطات ثبتت طرفها الأمامى الطولى بالطرف الخلفى الطولى للبلاطة التى أمامها ، ما شذت بلاطة عن هذا التقاطر الذى شكل منظرها ، الا تلك البلاطة الأخيرة التى أطلت بمقدمتها على الميدان ، اتخذت لنفسها وضعا مغايرا وشكلا مختلفا ، غير مألوف للعيون .. خلصت طرفها الأمامى الطولى ، من الطرف الخلفى الطولى ، لتلك البلاطة التى وقعت بكاملها فى حضن الميدان وارتدت بهذا الطرف خلفا ، واتكأت به وبنصفها الطولى على الرصيف أما طرفها الخلفى الطولى ، هذا الطرف الذى كان ملتصقا بالجزء الأمامى للبلاطة الخلفية ، فقد تحرر من هذا الالتصاق وقذف بنفسه مع النصف المتبقى من البلاطة إلى نهر هذا الجانب المعتم من الشارع سابحا فيه .. نتيجة لهذا الفعل الغريب من هذه البلاطة التى اتخذت هذا الخط العرضى بديلا عن الخط الطولى ظهرت الفجوتان عميقتان أماما وخلفا ،

★★★★

(٤)

انغرست قدم لى بالفجوة الأمامية وخاضت الأخرى فى الفجوة الخلفية ، انحشرت البلاطة المستعرضة بين «سمانتى» الساقين ، اتجهت عيناى إلى أسفل مستوضحتان الأمر بانت «السمانتان» قطعتا اسفنج مرشوقتان بكاملهما بالدبابيس

(٥)

(أقول لاسمى . . هذه المرة يا مصطفى يكون سؤالى مغايرا ، لن استفسر أين يذهب الدبوس ، بل استوضح من أين تأتى كل هذه الدبابيس . . أقول المصطفى الأسمر ، هذا الذى يحمل اسمى ، إن تريد أن تلازمنى فعليك أن تحصى عدد هذه الدبابيس ، وهو طلب كما ترى سهل وميسور ، ولأجل «عشرة» طويلة تجمع بيننا لن أشق عليك يا درش ، أعفيك من عبء «التصنيف والتبويب والتفريد» ، وعد كل نوع على حدة بمعزل عن باقى الانواع الأخرى . . أمنحك يا درش فرصة العمر ، هى فرصة ذهبية ، فكن بها جديرا ، انتهزها فلن اكررها ، اثبت أنك تستحق فعلا أن تحمل اسمى ، وتذكر المكاسب التى تعود عليك من وراء هذا)

★★★★

(٧) وهو يجلس فوق بلاطته الذهبية تشم انفه رائحة العطر ، . . سريعا تسعى العينات للبحث عن مصدره ، لا تجد أى صعوبة فى تحديد الاماكن ، هى الشرفات ، ونساء الشرفات هى المشعات عطرا ، هن ايضا المتخففات من كثير الثياب ، والمكتفيات بقليلها . . كلهن ينادين عليه ، وكلهن يقلن له أن أصعد الينا ولستصحبك البلاطة الذهبية ، فمراتبنا ناعمة ناعمة ، واغطيتنا دافئة دافئة وعطرنا يفعل أفاعيله . . العينان تسبحان بعيدا عنهن ، مقعدته تتمسك ببلاطته الذهبية . . يتخفف من كثير الكثير من

ثيابه لصالح بلاطته الذهبية يستـرها بها ، لا يبقى عليه من الثياب إلا قليل القليل القليل .

★★★★

(٤) أنبه البلاطة الدبوسية أنها بفعلتها التى فعلتها تخل بالنظام وأنها تقطع التـقاطر المطلوب ، وإنهـا تصنع الفـجوتين . . ألفت نظر الاسـلاك بالعنكبوتيـة الصلبة أنها تحركت من فـوق أبواب الشرفات وأنهـا امتدت ، وأنها نزلت ، وأنها استقرت على الرصيف . .

★★★★

(٧) الاذنان تتـصنتـان على الجمل ، تـتصنتـان على الكلمـات ، تتصنتـان على الحروف ، تحاولان أن تـتعرفا عـلى ما تنبأ به . . يتـأكد أن بعض عمال المتاجـر وبعض راكبى العربات يعرفون كمـا تعرف بعض نسوة الشرفات بسر بلاطته الذهبية ، وأنهم جميعا يخططون .

★★★★

(٨) أرى الجـانب الصـامت ورأيت الجـانب الشـاغى ، . . . أرى الادوار العلوية لبـيوت الجـانب المعتم وهى تغـوص فى الادوار السفلـية / ورأيت الرفوف وقد خلت من السلع كلها :

أرى حـوائط البيـوت التى تغوص أدوارها وهـى تنتغط فى بعـضهـا البعض / ورأيت المتاجر المتجـاورة وقد انكفأت داخلها «المانيكينات» على وشوشها . . .

أرى ذرات الأتربة الموحدة اللون وهـى تنتغط وتمتزج وتحـول لأفاعى وعقارب / ورأيت العربات وقد تحركت ولا سائقين لها . . .

أرى النوافذ المغلقة وريح صرصر تقتـحمها وتخرج من ورائها الأغربة والخفافـيش / ورأيت نسوة الشرفات ولا شعر فـوق رءوسهن ، والأغطية وقد امتلأت بالثقوب

(ب)

هو اللون الأسود .. والأبيض

هو الحدث وقع ... ويقع

هو الصفر ... والمليون

هو هنا / وهناك

(ج)

رايت وزرى ... رأيت وأرى ... رأيت وأرى

(د)

(٦) « قال مصطفى ، أقول لمصطفى .. الهدف أن تمتد الذراعان تمتدان » وأن تستطيل الساقان ، تستطيلان ... وأن تتواجد الكفان بجانب والقدمان بالجانب الآخر وأن تتوسطهما الراس وأن يصل بينهما القلب »

(هـ)

أأرى ؟ فهمت

أفهمت ؟ ترى

١٩٩٢/١١/٢٥

آتيات .. ولا فكاك

ما أنا وصلت إلى المكان الذى أشار ثلاثتهم على بالتوجه إليه ، حتى وجدته مختلفا كل الإختلاف عما وصفوه ، ومغايرا كل المغايرة لصورته فى خيالى . . تشككت فى فهمى عنهم ، وخشيت أن أكون قد سلكت طريقا آخر غير الطريق الذى حددوه لسيرى وحدثونى عنه ، لم يكن من السهل على عقلى أن يتشكك فيهم لعدة أسباب فثلاثتهم عندما التقوا بى كان هذا هو أول لقاء لى بهم ، فوق هذا فاللقاء تم مع كل واحد منهم على حدة ، الأكثر أن أماكن اللقاء جاءت كلها متباعدة زمنا ومختلفة مكانا، بالنسبة لى كنت فى كل مرة من المرات الثلاث أرتدى زيا مختلفا وتتلبسنى حالة مزاجية مغايرة . .

★★★★

قبل لقاء أولهم بى ، كنت مدعوا لحضور حفل زفاف قريب لزوجتى، وعندما نشب الخلاف بين آل العروسين على من تكون لها حق ركوب العربة مع العروسين ، أشقيقة العريس أم شقيقة العروس؟ . . ارتضى الجميع أن يلتزموا بما أحكم أنا به . .

★★★★

وأنا اتابع فيلم السهرة «التليفزيونى» عقب لقاء ثانيهم بى أرسل الجيران إلى يستسمحونى أن أخفض من صوت التلفزيون ، ليتمكنوا من النوم براحة، بعد أن تجاوزت الساعة الواحدة، بعد انتصاف الليل ، «عندا» فيهم وتحديا لهم رفعت الصوت حتى آخر درجة يسمح بها مفتاح تشغيل الصوت ، فاقسموا أن يتقدموا إلى جهار الشرطة بشكواهم، وأنهم منذ هذه اللحظة لن يرعبهم مركزى ومكانتى، اجمعوا أمرهم أن يتهمونى بأننى احتمى بمنصبى الرفيع، وأننى استغل نفوذى . .

★★★★

أما الثالث ، فقبل أن يلتقى بى ، كنت قد قرأت كما أفعل صباح كل يوم ، ما يقوله برجى «السرطانى» ، بثلاث من الجرائد ، جريدة ، بشرتنى بيوم سعيد ، وبأننى سأكون شاهد الإثبات الأوحد ، فى قضية غاية الأهمية ، تتعلق بأمن الوطن ، الثانية ، ذكرت أن على أن أعد نفسى لإستقبال مفاجأة قادمة فى الطريق ، وعلى أن أرقبها قبل انقضاء ظهر اليوم، وأن خطابا سوف يصلنى من المحكمة الدستورية العليا مهنئًا أياى باختيارى ، عضوا بلجنة مختصة بوضع الضوابط الواجب توافرها فى شاهد النفى . . أما الجريدة الأخيرة ، فقالت لا تتقاعس ، وابحث عن خصومك لتلاحقهم باتهاماتك، وتزج بهم داخل المعتقلات قبل أن يتمكنوا منك . . فمن أين جاء كل هذا الاختلاف ، وكل تلك المغايرة ، ولا مفردة واحدة توحى أنهم قصدوا تضليلى عندما حددوا لى المكان ؟!

★★★★

أول الثلاثة ، كان شيخا ، اصطدمت به وأنا انصرف عن متجر البقال التعاونى الذى اتعامل معه منذ الطفولة وأحيانا « على النوتة» . . ومع أننى المخطأ إلا أنه هو الذى بادرنى معتذرا ، لم يكتفى بالاعتذار بل قال .

رب ضارة نافعة ، ورب صدفة خير من الف ميعاد . . فمعذرة، تهيأت كى انبهه إلى أنه لم يخطئ وأن من عليه أن يقدم الأسف والاعتذار هو أنا ، لا هو . . وكان فى نيتى أيضا أن أنبهه أنه «عيب» عليه وقد بلغ هذه السن المتقدمة أن يكون جبانا ، وأنا عليه أن يكون أكثر حرصا على كرامته ، ولا يخشى أحدا . . أستبقنى وللمرة الثانية إلى الكلام.

: منذ زمن بعيد جداً وأنا دائب البحث عنك . . حتى أصبح هدفى وأملى وحلمى أن أراك قبل رحيلى وقد أزف موعده.

: لا أحد منا يعلم متى يحمل موعده ولا أين يكون المكان ، فالمريض قد يبقى ويرحل الصحيح المعافى.

: أعرف ، ولكن بعد أن شخص «كنصلتـو» من أمهر الأطباء حالتى أصبح شغلى الشاغل أن التقى بك قبل أن يصدق ظنهم وينفلت العمر . . غادرنى فنـحيت عن رأسى غطائهـا وحررت رقبـتى من كوفـية تحيط بها وطرحت عن ذهنى كل كلام قاله . . .

★★★★

أما الثانى ، فقـد كان صبيا حارس مـرمى لفريق من تلك الفرق التى لا يحلو لها إقـامة مـبارياتها إلا ليـلا بأنهر الشـوارع، كان كل لاعب من لاعبى الفريقين مـستقلا بزى خاص به ، حتى أننى خمنـت أنهم يتعرفون على بعضهم البـعض نداء بالاسم لاختلاف الزى ولخفوت ضـوء مصابيح الشارع. . عندما انحدرت نحو شارع جـانبى ، حرصا على نظارتى الطبية سمـيكة العدستين من أن تصيـبها كـرة طائشة ، رأيته يترك المرمى شـاغرا ويندفع عـدوا ليلحق بى ، تعـجبت من سـلوكه . . فكيف وهو حـارس المرمى يفعل هـذا خاصة وهو يرى لاعـبا ، أنه من حسـبتـه أنا من الفريق الخصم يتقدم نحو المرمى ، والكرة بين قدميه يوشك أن يسجل منهما هدفا بكل سهولة قال لى بعد أن لحق بى.

: كل شئ يهون ياعـمى ، حتى ضياع الكأس لا يحـزننى . . الحزن والنواح أن أدع فرصة اللقاء بك تمر ولا أقبض عليـها بيدى ، ولتعفنى من ذكر أسبابى . .

استكثـرت على من هو فى مثل سنه أن يأتى تفكيره بهـذا العمق وأن ينطق كلاما ما بمثل هذه الجزالة ، ومع تمتـعى بخفض ووزن ورشاقة جسم وسـرعة حـركة إلا أننى لم أجـعل من كرة الـقدم لعـبتى المفـضلة الأولى بالرعاية ، حـتى عندما فكرت أن أنخـرط فى زمرة المشـجعين اتسـاقا مع سلوك سائد واخترت فريقا ، اخـتلطت فى عينى لون أردية الفريق، وكثيرا ما اكتشـفت أننى أشجع الفريق الخصم ، غادرنى الصبى عـائدا نحو مرماه

فجـذبت غطاء الرأس نحو أذنى وإذ تأكـدت أنه قد غطاها تمامـا ، نشرت العباءة التى كنت أضعها فوق كتفى على كامل جسدى ومشيت . .

★★★★

أما ثالثهم فقد كان شـابا يافعا يسكن جسدا له بناء رياضى . . عندما رآنى نهض من فـوق مقعـد من مقـاعد الدرجـة الأولى من عربات مـترو الانفاق واستسمحنى أن أقبل دعوته واحتل مكانه قال لى.

: عملى يقتـضى أن أجوب البلاد طولا وعرضـا ، أرتحل بين مدنها وقراها لا استقر بمكان واحد طويلا لهذا فقد بدأت أكرهه .

: تكره من ؟

: عملى . . إذ خشـيت أن تسلبنى طبيعته فـرصة اللقاء بك ، لكن لحسن الحظ يحدث الآن العكس . .

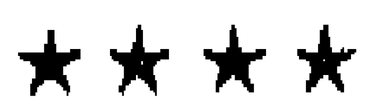
لم أتردد فى شغل المقعد الخالى ، فجلست واضـعا ساقا فوق ساق ، ثم أخرجت غليونى وعلـبة تبغى ، لم أهتم بمسار الدخان الذى نفـثته من فمى وانفى وهو يتجه نحو وجهه ، انشغلت عنه بحل الكلمات المتقاطعة .

★★★★

أجمع ثلاثتـهم (الصبى / العجـوز / الشاب) أن على أن أترك كل الأشياء خلف ظهرى لا أعيرها التـفاتا وأمضى إلى هناك بأسرع ما يمكن لا أبدد وقتا ، ولا أختلق معاذيرا. .

أيام مضت وأسابيع وشهور منذ وقع آخـر اللقاءات والأمر بالنسبة لى لا يمثل وزنا ولا يشكل قـيمـة حتى ضـاعت من بصرى مـلامحـهم ومن سمعى نبرات أصواتهم ومن ذهنى معانى كلماتهم . . ثم أصابتنى نوبة برد عادية ، لم تلزمنى فـراشا ولـم تلجأنى إلى طبيب لكنـها جعلتنى أسـتعيد اللقـاءات الثلاثة فـعادت إلى مـلامحـهم ونبـرات صوتهم وكلمـاتهم . .

تذكرت عنهم كل الأشياء . . اجماعـهم أننى سأجده هناك ينتظر مقدمى ، وأنه سيكون فى الوسط تماما من الميدان ، وأن الميدان ستكون قـائمة بكل ركن من أركانه الأربعة حديقة . . وأن بكل حديقة حوض ماء . . وأن من كل حوض ماء تنبـثق سبع نافورات . . وأن السبع نافـورات ، كلها تقذف مـاءا . . وأن ماء كل نافـورة من النافـورات الثـمان والعـشـرون له لونه المغاير . . وأن اللون المغاير لمـاء كل نافورة يصنع مع مجموعـة الألوان نغما مسموعا . . وأن النغم المسمـوع ينطق باسمى . . وأن اسمى كما أعرف هو (مصطفى) وأن مصطفى هو ابـن (الأسمر) . . وصفوا فأفـاضوا . . قالوا فزادوا . . وما أن اطمئنوا أننى استمعت فوعيت حتى حددوا لى الجهة التى على أن أعبرها عندما يتصل الشـارع بالميدان وصولا إلى قلبه . . أكدوا أن على أن ألجـأ إلى الجانب الأيمن الجـنوبى ليكون هو بداية سـيرى ومنطقـة انطلاقى ، طمأننى ثلاثتهم أن على ألا انزعج أو أرتبـك من كثرة العربات التى تمرق مسرعة متخذة نفس مسارى فقط على أن أكبح جماح رغبتى فى متابعة ما تبثه شاشات «التليفونات» مقامات ٣٠ و ٤٠ و ٥٠ بوصة والمثبتة فوق سطوح هذه العربات ، مـتعددة الموديلات والماركات ، فمهـما كانت طبيعة المشـاهد فعلى ألا أستسلم لها ، وألا ينسينى صـفاء الارسال ونقاوة الصورة المجسمة هذا التحذير . . فبقـدر نجاحى فى مقاومة مغرياتها تكون النجاة . .



لاسبوع كامل كانت بدايته يوم سبت ونهـايته يوم جمعة عاشت معى كلمـاتهم . . أجلس مع الأصدقـاء اسمـعهـا بأصواتهم ، أتناول الطـعام تشـاهد عـيناى مـا وصـفـوا مـفـصـلا . . أذهب إلى فـراشى أراهم فى أحلامى . . ذات حلم رأيتهم يتـحولون من هيئتهم البـشرية إلى طيور تلزم رقبتى ، تحوم حولها ، تتخذها أعشاشا وقد تعلق بكل جناح من أجنحتهم

كتابا منشورا . . ثم لازمونى فى صحوى وهم على هيئتهم الجديدة . . مع بداية اليوم الثامن ، كان يوم السبت كان تحملى لملازماتهم قد نفد ، فعقدت العزم أن أذهب إلى حيثما أشاروا . . وصلت إلى نهاية الشارع فلم أجده هناك بمنتصف الميدان بنتظرنى ، فلا ميدان أصلا ، ولا الحدائق الأربع ، ولا نافورات الماء حتى العربات وأجهزة التليفون لا أثر لهما . . ومع ذلك لم أمل لفكرة تكذيبهم بعد أن تطابق تماما وصفهم للطريق مما يدعم موقفهم . . فعند أول منحنى قابلنى وكان جهة اليسار بالفعل كما ذكروا رايت بعينى رأسى لا بعين خيالى الطوبات السبع وهى مرصوصة فوق بعضها البعض على نفس الصورة التى رسموها لى حتى أننى تذكرت لحظتها مجموعة محددة من زملاء الطفولة المبكرة تعودنا أن نلعب معا لعبة (السبع طوبات) التى كنت فيها مبرزا سواء كان موقعى بالفريق الذى يجرى أفراده ويتحاشون أن تصيب أجسادهم (الكرة الشراب) بعد أن اسقطوا الطوبات السبع أو مع الفريق الخصم الذى عليه حراسة الطوبات المبعثرة حتى لا ينجح الفريق المنافس فى إعادة ترتيبها . . ولما أصبحت واحدا من أهم معاونيه كنت ابرعهم فأصبح الناس بالنسبة لى صنفين إما من أفراد الفريق الذى أسعى لاصابة أفراده «بكورى» بعد أن اتخذت شكلا مغايرا ، وإما من أعضاء الفريق الذى يعمل جاهدا كى لا يرتبوا شيئا . .

★★★★

أما المنحنى الثانى فقد كان عن يمين قامت على مدخله كما ذكروا وبامتداد عرضه من الطوار إلى الطوار الحفر الخس على هيئتها ، من شدة تطابقها مع وصفهم قطعت انهم شاركوا فى صنعها . . فهناك حفرة المنتصف وهى الأكبر حجما فالمجاورتين لها ولا تصلان إلى مدى عمقها واتساعها ثم حفرتى الطرفين وهما الأصغر حجما . . بالفعل رأيت رأس البغل المحنط تطل من حفرة الوسط وبواحدة من الحفرتين المجاورتين تحديدا

تلك التى عن يمينها قاعـدة تحمل تمثالا لحصان نصـفه الأمامى أبيض اللون ونصفه الخلفى أسود عدا الـذيل فهو أحمر اللون ، أما حفرة اليســار فيشبه دغل تطل من بين أفرع أشجاره المتشابكة الأغـصان زلومة فيل لونها أخضر محـاطة بنابين من الأبنوس لا العـاج .. الحفرتان المتـبقـيتـان والمجاورتان للطواريين ، وهما الأقل عمقا واتساعا ، فقد كانتا عبارة عن مقلبين زبالة، لفظ كل مقلب مجـموعة متباينة من النفـايات والفضلات ، بداية من ورق الصحـف وانتهاء بـقطع من الحديد الخـردة .. تجسـدت عيناى الحـفرات الخمس رقعـة شطرنج عملاقة لمدينة عـملاقة فتوقـعت أن يكون ناسها من البشـر . من طبقـة العماليق لهـذا فلا قـبل لى بملاعبة طفل مـن سكانها العماليق فـيقينا بعد أول نقلة سينتـصر على ، وعلى فرض أن سكان هذه المدينة العمـلاقة أقـزام ، ما كان بوســعى أن اتـغـلب على أحـدهـم بيسر ..

★★★★

أما المنحنى الثالث والأخير ، الذى نبأنى به الثلاثة ، فقد كان شارعا رئيسـيا متقـاطعا مع الشارع الذى أسيـر فيه ، وكان كـما هو واضح لأى عينين واحدا من أهم شوارع المدينة ، فهو شـارع المال والتجارة ، ومتاجره المتخمة بالأضواء النيونية الثابتة والمتـحركة للافتات «وفتارين» العرض تؤكد هذا .. أما المثير للانتـباه فيه فمجرد مـشهدان لاغير وما عداهـما فمشاهد عادية .. أول المشهدين من حيث الإثارة سلسلة متصلة من القطاط الصغار الحية والدمى تتـوسط الشارع ، بديلا عن جزيرة المتصف التـقليدية ، وقد أتخذت شكلا ثابتا لم تحد عنه ، فقطة دميـة ترتكز بقائميها الأماميين على ظهر قطة حية ، لترتكز هذه الحـية بدورها على قطة دمية ، وهكذا سلسلة متـصلة ممتدة بامـتداد شارع لـم تدرك عيناى نهايتـه ، لا عن يمين ولا عن يسار ، أما المشهد الآخر فقد كان عـبارة عن لافتات ترحيب معلقة بعرض

الشارع ، قدرت أنا المسافة الفاصلة بين كل لافتــة والتالية لها ما بين مترين ومترين إلا ربعا أما ارتفاعها عن سطح الأرض فيتراوح ما بين خمسة أمتار أو أقل أو أكثــر قليلا ، وفى حدود عشــرة سنتى ، المكتوب على قمــاشها جملة ترحــيب وتأييد نصــها (ارواحنا ودمــاؤنا فداء لك) . . الجمــلة ثابتة واحدة لا تتغيــر كلماتها ، فكل اللافتات تحملها وإن اخــتلفت طريقة كتابة حــروفــهــا ، تارة يكون خط الرقــعــة هو أسلوب الــكتــابة ، وتارة يكون الاسلوب هو خط النسخ ، وثالثــة الديوانى ورابعة الكمبــيوتر . . الخ مع توخى الحرص أن تظل كل لافتــة متفردة بلونها الخاص قمــاشا وحروفا . . الغريب أنه لم تتــفق فى اللون أبدا لافتتان حتى ولــو جاء الأمر عن طريق الصدفــة ، فى ظل هذا العدد اللامتنــاهى منها ، عرفت من هو المقــصود الذى رفعت اللافتات من اجله ، فذكائى ما كان ليعجز عن تحديده وأنا من كنت فى يوم من الايام من أهم مــســتشــاريه ومبــديى الرأى له ، وكم نال الناس من وراء رأيى هذا شرا أو خــيرا ، حتى آتى هذا اليوم الأغــبر الذى أزاحنى الآخــر عن مكانتى المرموقــة وتميزى فــانحسرت الاضــواء عنى . . تجاوزت هذا لمنحــنى ، وتجاوزت قطاطه ولافتــاته كمــا تجاوزت سابقــيه ، وحتى لا ابدد وقــتا هرولت مشوقــا لرؤية الميدان ، حتى إذا انتــهى الشارع ولم يعد له امتداد لم أجده ، ولم أجد أى شئ مما ذكروه لى . .

★★★★

مارأيته كان مختلفا ومغــايرا ، فنهاية الشارع مستنقع ماء لونه الناصع البياض سمة من سماته ، ورائحــته التى تنوء أقوى الأنوف على استنشاقها خاصية من خواصه . . وأنا فى قــمة ضيقى من هذه المفاجأة التى لم تكن لى بحــسبان ، كــان على أن أتخذ قــرارا فوريا إمــا الإستدارة نحــو الخلف والعودة عدوا من حيث جئت وإما التــقدم إلى الأمام لأكتشف ما وراء هذا المستنقع وماذا يعنى وجوده نهاية لمسيــرتى وللشارع الذى سلكته . . بتلقائية جاء قــرارى فى صالح العــودة فاستــدرت لتصطدم عيــناى بما هو أغرب ،

فالشارع الذى أتيت منه قد اختفى تماما ، حل محله مستنقع لا يختلف أبدا عن المستنقع الذى كان أمامى وأصبح أيضا خلفى . . وهكذا اصبحت محاصرا بين المستنقعين ، لا يابسة إلا ما تقف عليها قدماى . . جزيرة لا يزيد قطرها عن متر على أكثر تقدير . . لعنتهم سرا وجهرا ، فضيقى بخداع ثلاثتهم لى فاق ضيقى بما أنا فيه . . وأنا من ظن نفسه أن قلة من البشر من هم فى مثل ذكائه وفطنته . . جلست فوق الجزيرة معزولا ، أفكر فيما يجب على فعله وكيف أصل إلى الحل الذى ينتشلنى من ورطتى التى أوقعت نفسى فيها ، فمالى أنا والإستماع لأقوال صبى لا أعرف عنه أكثر من كونه حارس مرمى لفريق يتنقل بين شوارع المدينة ، أو لعجوز لم أره من قبل اللقاء به ولا لمرة واحدة ، أو لشاب استغفلنى عندما تنازل لى عن مقعده بمترو الانفاق . . وأنا مهموم شقى مقهور أكاد أبكى سمعت صوتا ينطق باسمى : مصطفى .

تلفت حولى أبحث عن مصدره ، لم أر أثرا لصاحبه لا أماما ولا خلفا . . لا يمينا ولا يسارا . . لا فوقا ولا تحتا . . صك الصوت سمعى واضحا جليا .

: لا تجهد نفسك ياأسمر بحثا عنى فعينك لن تبصر بى . .

كان الصوت مألوفا لى . . بل لقد كنت على يقين أننى التقيت بصاحبه كثيرا وعايشته أيضا . . ولكن متى وأين . .؟ كان هذا هو المحير . . أعندما كنت طفلا بمدارس الحضانة . .؟ أم تلميذا بالمرحلة الابتدائية؟ . . أم وأنا شاب؟ . . أم منذ أيام قلائل؟

: قال الصوت .

: لا تنشغل بالأمر يامصطفى وفكر فيما هو أجدى وأهم .

: أهناك . . الجلسة . . فيقينا أنت ستحضر الجلسة .

: ومن أين أتيت بهذا اليقين ؟

: أقول لك «يادرش» وأشـرح . . فاسمع منى ولا تعـجب من قولى . . أنا أعرف باطنك بمثل ما أرى ظاهرك .

: والأعجب أنك تتخفى ، إظهر سافرا بوجهك لأقول لك أننى يقينا لن أحضر ، وأننى يقينا سأخيب يقينك .

قال الصوت .

: ليس الأمر بيدك ، فبعد حين يتأكد لك يا ابن الأسمر أن حضورك أمر محتوم ولا مفر.

: لن يكون أبدا لا الترغيب يغـرينى ، ولا التـرهيب يهـزمنى دار بخلدى أن هذا الخفى عن عينى وراء كل ما أنا فـيه من مشاكل ، وأنه هو الذى أزاحنى عن مكانتى ، ولـم يكتفـى بل دبر لى هذا الفخ ليصطادنى ، فدس على ثلاثتهم طعـما . . ومن غفلتى اعطيتهم أذنى ومنحـتهم فرصة التغرير بى ، وهأنذا احصـد علقم غفلتى . . سببتهم جميعا وكدت أسب معـهم صاحب هذا الصوت لكننى امـسكت لسانى فالصـوت مألوف وكى أستوضح الأمر سألته عن اسمه . . أجاب

: مصطفى .

أنزعجت أن يكون هذا هو إسمه . . طمأننى.

: أغريب أن يكون أسـمى مطابق لأسمك . . إليـس من بين اقاربك الكثيرين ممن يحملون أسم مصطفى ؟

تجاهلت استفساره ، فذكـر لى أنه يعرف من بين جيرانى خمسة كلهم يحملون إسم مصطفى ، بجانب سـبعة تربطنى بهم صلة عمل ، ويناديهم الناس باسم مصطفى . . كان الأعداد مطابقة فعلا فتأكد لى أن يعرفنى تمام المعرفة وأننى بدورى سأتعرف عليه إن أسفر لى عن وجهه . . قال .

: بالطبع لا تخلو أسرة من أسر المدينة من وجود فرد واحد على الاقل من بين أبنائها اسمه مصطفى .. باختصار أنا لست مصطفى الذى تظنه .

: إذن من أنت ؟

: أحضر الجلسة لتعرف . فلم يبق عن موعدها الكثير وأنت لم تحدد بعد وتختار .

: أختار ماذا ؟

: بأى الأماكن تحب أن تكون

: اى جلسة وأى مكان ؟

: جلسة المحكمة بالطبع .. أيزعجك أن تكون أثناء إنعقادها خلف القضبان ؟

: اظهر لى لأطمس رأسك فى ماء هذا المستنقع فأنت تستحق هذا لطول لسانك .

: ليس من المحتم أن تكون خلف القضبان إذ يمكنك المفاضلة بين شاهد النفى أو شاهد الاثبات .

: عن أى شئ أشهد ؟

: الشهادة ثقيلة على النفس فعلا الأسهل أن تختار بين ممثل النيابة أو ممثل الدفاع .

: لم يبق لكى تتم المهزلة إلا أن تخيرنى بين الحاجب أو شرطى الحراسة .

: بل لو طلبت ان تجلس مجلس القاضى فسيقبل الجميع طلبك خشية أن يتراجع أو يغير من رايه أو يسحب عرضه قلت .

: قبلت الحضور واعتلاء المنصة ، والجلوس فوق مقعد رئيس المحكمة .

جاءت موافقتى هذه وليدة تفكير جاد ، أقنعتنى أن فى هذا خيرى فمهما كانت المغامرة مجهولة فضررها أهون بكثير من البقاء وسط هذا المستنقع ، ثم إن موقعى كقاض يعصمنى من أن يحكم على الآخرون . . أحببت قبل استفساره عن كيفية الوصول إلى مقر المحكمة أن أدور حول نفسى مستطلعا المكان لآخر مرة قبل مغادرتى له فقد اجد فيه ما يصرفنى عن الذهاب معه . . ففعلت . . أبصرت عيناى وجوها ثلاثة ، لشاب وعجوز وصبى ، لكنها كانت متداخلة فى بعضها البعض لم أتمكن من تبين ملامح كل وجه على حدة أو أقف على تفاصيله . . أجتاحنى يقين أن هذه الوجوه لهم ، لهؤلاء الثلاثة الذين أشاروا على بالمجيئ إلى هذا المكان . . ولما لم استطع وأد هذا اليقين خمنت أنت الصوت الخفى هو مزيج من أصوات ثلاثتهم إذا اجتمعت فانتبهت وانتويت أن أخذ حذرى تماما فقد تكون حكاية المحكمة هذه فخ جديد ينصب لى ، عواقبه أشد هولا مما أنا فيه الآن فقلت له .

: فلنرجئ حضورى الجلسة لموعد جديد أحدده أنا لك فيما بعد . . ظننت أنه سيعترض ويلومنى لا خلالى بالاتفاق ولا يقرنى على طلبى لكنه فاجأنى قائلا .

: أنت وما تحب .

لكنه عندما أضاف : فقط إعلم أن الجلسة ستنعقد فى موعدها دون تأخير .

ارتبكت ثم ارتج على عندما قال

: ومقدر عليك أن تحضرها وترى بعينيك . .

: اغمض عينى فلا أراها ، وهذا أبسط الحلول ، حينها لن تقدر أنت ولا سواك أن تجبرونى على الرؤية .

: أفعل وأرقب ما سوف يحدث .



فعلت فابصرت قاعة لا نهاية لإمتدادها ، وكنت أنا مصطفى الأسمر، بشحمى وملامحي ولزماتى كل حضورها ، الجالس فوق مقعد القاضى هو مصطفى ، والواقف أمام المنصة المرتدى للمعطف الأسود هو ابن الأسمر ، والحاجب الممسك برول الجلسة هو من سماه أهله مصطفى، والشرطى المدجج بالسلاح لو سألت سائل لقال إنه مصطفى ، وممثل الاتهام الموشح بالشريط الأحمر ردد الجميع أنه مصطفى ، حضور الجلسة الجالسون فوق المقعد الخشبى مستنسخات من ابن الأسمر مصطفى . . حوم الثلاثة حول القاعة فسألتهم .

: أين هو هذا الميدان الذى حدثتمونى عنه ؟

لم تتحرك شفاهم ولم تنطق السنتهم . . فتحت عينى على سعتها فرأيته كان المحتجز خلف القضبان الحديدية هو أنا . . توجهت إليهم من جديد أسأل وأستفسر . . أستوضح وأستفهم . . أعتب والوم أرجو واستعطف . . والثلاثة لا يريدون أن يتخلوا عن صمتهم هددت ووعدت. وهم لا عمل لهم أكثر من الانصات والصمت من كثرة ما تكلمت جف حلقى وبلغ منى الظمأ مبلغا عظيما فتشقق لسانى وتساقط شعر رأسى ، أستنجدت بكل «المصطفين» من حضور الجلسة ، الجالسين على المقاعد الخشبية فأخرج كل مصطفى منهم من تحت ابطه كتابا فنشره . . تضرعت إلى مصطفى معتلى المنصة والجالس فوق مقعد رئيس المحكمة فوشت عيناه بما ينتظرنى . . لم يكف الثلاثة عن التحليق حول رقبتى ، على البعد رأيت ماءا يدعونى إليه فخرجت من خلف القضبان ساعيا وملبيا ، طال

بى السير فتآكل جلد قـدماى تمنيت قطرة عرق ارطب بها حلقى ولكن ضن
على بها الجسد بـعد أن تبخر كل مائه . . ظهر القاع المـمتلئ ماءا فراودنى
الأمل فى إرواء عطشى حتى جئته لم أجد ، شيئا . . .

(ب)

ووجدت

١٩٩٤/١/١

امتزاجات .. ولا لقاء

أحضر مصطفى المرآة المكبرة من مكمنهـا الأمن ، اخرجها من جرابها الصلب المزدوج، قـربها من وجـهه ، دقق النظر فـيها . . قـال (هذه هى صورتى) . . أستدرك على نفسـه وصحح (كيف أقطع بكل هذه البساطة، وكل هذا الإطمئنان فى أمـار له كل هذه الخطورة والأهمية) . . استـحسن استدراكه فعقب (وإلا أين أجد هذا المخلوق ، ملاكا أو شيطانا. . أنسيا أو جنيا . . حيوانا أو طيرا . الذى يجرأ على القول بأن هذا الجالس أمام المرآة هو مصطفـى الأصلى ، ثم من هو هذا المجنون الذى بوسعـه أن يؤكد أن الذى يطل الآن من المرآة ليس هو مصطفى الحقيقى؟) . . ومع أن التعقيب كان عند البوح به عـصى على الفهم ، غير قابل للتـصديق، لا يحكمه لا منطق ولا مألوف، إلا أن مـصطفى لم ينكره تماما . . فـما المانع فـعلا أن يكون مصطفى الحقيقى . . الحقـيقى الحقيقى . ،. هو هذا الذى يطل الآن من المرآة؟ . . . وأن تكون الـصـورة . . الصـورة الصـورة . . هى لهـذا الجالس أمام المرآة ؟ . . وربما تـثبت الأيام فى القريب العاجل ، أو البـعيد النائى أن هناك حقيقة أخرى غائبة . . تختلف تماما عن هاتين الفرضيتين ، كأن يكون هناك مثلا مصطفيـان لا مصطفى واحد ، وعشر صور لا صورة واحـدة . . أو أن لا يكون لمصطفى هذا - أصـلا من وجـود وأن مـا تراه العيون ما هو إلا وهما فى وهـم ، ومحض سراب . . وإذ استراح مصطفى لهذا التخـريج لم يبق أمامه خلاصا من مطـاردة لا ترحم إلا العمل بجدية للوصول إلى الحقيـقة . . الحقيقة الحـقيقة . . اختار مصطفـى لتحقيق هذا وسيلتين متناقـضتين تماما ، متباعـدتين عن بعضهما البعض ، بعـد السماء عن الأرض . . واحدة اتخذت الحب والخـير طريقا لها ، وجـعلته غاية ،

والأخرى وظفت البغض والشـر سبيلا ، واقامته هدفـا . . وحتى لا يبدد مصطفـى وقتا هو أحـوج ما يكون لكل ثانيـة فيـه أقام السـرادق ، زاخرا بالثريات الكهربائية مـفروشا بالبسط الصوفية مزدحمـا بالمقاعد الذهبية . . ومع عظم اتساعـه سار فيـه على قدميه ليـتمم بنفسـه على الصغيـرة قبل الكبيرة ، حتى إذا اطمأن لحسن الإعداد وكماله اطلق المنادين المائة ، أمرهم أن يجـوبوا الميـادين ويسيـروا فى الشـوارع ويجـوبوا الحوارى والأزقـة ، ويخترقوا القرى والنجوع ليبلغوا الناس ، كل الناس ، الذكران والإناث أن السرادق قد نصب ، وأنه قد اصبح معدا لاستقـبال كل ذى حاجة ليقضيها له السـيد مـصطفى بنفسـه ، أو على الأقل يقـدم له العون ويقـدم له يد المساعدة .

فورا اقتـحم السرادق قتلة ونشالون ، نور ونصـابون ، وفى أعقابهم تقاطر حشاشون وشواذ ، تجـاور عند دخوله المؤديون للحكومة والمعارضون لها أمـا آخر الوافـدين فكـانوا أصحـاب العاهـات والجـوعى ومـلتاثى العقول . . .

وكلما أقبل جدد كان السرادق يتسع تلقـائيا ويمتد طولا وعرضا ليجد كل قادم مكانا له بين أقـرانه . . ثم ظهر إبليس نفـسه . . دخل من هناك من ذيل السرادق . . اسـتقبلت المنصـة مصطفى ، جلس مواجـها للواقط الصوت المرصومة أمامه اختبر صلاحيـتها للعمل وكفائتها على التوصيل ، لم تخذله . . رشف رشفة من كوب امتلأ حتى حافته بماء ناصع البياض ، لم يزد عليها أعادة إلى حيث ما كـان ، نهض ليخاطب الجموع الجالسة ، قال

: أيها الناس . . أيها الناس . . أيها الناس « قالها ثلاثا»

تنصـتت الأذان كلها له وتتـركزت العـيون كلهـا عليه ، وإذ اطـمأن

مصطفى أن ولا عين واحدة لم تعد مستقرة عليه سأل .

: أبلغكم النبأ العظيم ؟

تكلم حضور السرادق معًا ، فاختلطت الأصوات ، الغليظة بالنحيلة، الخافتة بالزاعقة لتنطق بإجابة واحدة .

: كلا

سألهم

: ولماذا كـلا ؟ . . بلى لماذا كـلا أيهـا الناس حـضـور سـرادقى ، وضيوفى ؟

صمتوا فسأل .

: من منكم يعرف اسمه ؟

: كلنا .

: أواثقون أنتم من صحيح الإجابة ؟

: بلى

: بعد حين سوف تكتشفون أنكم تعجلتم فيها ، فتندمون

: أمن أجل هذا السؤال اتيت بنا لسرادقك هذا يا «درش»؟

: نعم

: وأسميت ما نقوله نبأ عظيمًا ؟

: نعم ، ولهذا أناشدكم أن تتريثوا ، لا تتعجلوا فتقطعوا برأى نهائى كما فعلتها أنا من قبل فشقيت ، لو فكر كل واحد منكم على مهل وانفراد فسيكتشف أنه كان مخدوعًا وواهمًا إذ قطع أنه يعرف اسمه وشخصه

قـال النورة ولصوص المتـاجر وسـارقوا المنازل ، وشـاركهم قـولهم المرتشون والمختلسون

: نعترف أننا كثيـراً ما حجبنا أسماءنا الحقيقـية وسترناها ، تهربًا من أحكام قضائية سابقة تلاحقنا ، أو تحـسبًا من أحكام قضائية لاحقة ، لكن كل منا كان يعـرف بينه وبين نفسه اسـمه الحقـيقى الذى منحتـه له أمه أو أطلقه عليـه أبوه ثم سجلتـه الدولة بناء على هذا بوثائقهـا ومنحتا بموجـبه شهادة الميلاد مزانة بأحبـارها وتمغاتها ، وسندافع عن اسمنا هذا مادام الأمر لصالحنا : عجـبًا لكم ، كيف غاب عنكم وأنتم الأكثـر حيلة ودهاء أن ما فى حوزتكم ما هو الا مجـرد ورقة لا أكثر ، ورقة مسـجل عليها حروف قليلة لم تسـتهلك من الأحـبار غـير قطرة واحـدة اندلقت فـوق مسـاحة محدودة من ورق

سأل مبتورا الأذرع والأقدام

: وأى اسم نذكره إن سألنا عنه سائل يا ابن الأسمر ؟

: لا تفعلوا ، حذر أن تذكـروا أسماء ، لا تستجيبـوا لأحد خوفًا أو مجاملة أو حرجًا . .

بكى الجوعى وملتاثوا العقول وسألوا

: كيف نتخلى بكل هذه البساطة عن اسمائنا وهى كل ما تبقى لنا فى الحياة الدنيا ، وهل نملك من متاع الدنيا غيرها ؟

: أما متـاع حياتكم فهو عندى ، أنا وحـدى من يملك أن يقدم لكم من مباهجها الكثير

★★★★

صـدق على كل ما قـاله مصطـفى هذا الذى دخل من هناك من ذيل السرادق

وأضاف قائلا

: أنابنى سيدى مصطفى أن أسلم لكل واحـد منكم كأسًا ، فإن تجرع شرابهـا كامـلا فسـيحظى بنعـيم الأرض ، يمتد عـمره ويمتد ويعـيش فى بحبوحة من العيش

لم تحل كثرة الكئوس ووفرتها التى حـملتها الأيدى اللانهائية الخارجة من جـسـد هذا الذى دخل من ذيل الـسرادق بـين تزاحم الناس وتعـارك الأيدى عليها ، طمأنهم مـصطفى ورجاهم أن ينتظموا صفوفًا فقـد استعد للأمر فـعدد الكئـوس تفوق عددهم بكثـير .. لم يستـجيـبوا .. تأملهم مصطفى وكل يشرب من كأسه وقال

: كل كأس حوت على عصير تفاحة كـاملة ، فاشربوا هنيئا مريئا ، وبحلو مذاقها استمتعوا

★★★★

استطاب الناس مذاق الشراب واستلذوا به فتخلصوا منه سريعًا .. أمر مصطفى موزع الشراب أن يملأ باياديه اللانهائيـة كل كأس تفرغ من شرابها لا يكف حتى يكتفى صاحبهـا بما شرب، أولم تعد لديه رغبة فى مزيد .. ولما زهد الجميع من الشراب قال مصطفى .

: فليعيش كل منكم الحياة بالطريـقة التى يحلم بها ، وليصنع كل ما بداله ، لا يتحـرج ، ولا يتعفف تـخففـوا ياأصداقائى وضـيوفى من كل شئ، ثيابكم ، حياءكم ، تحفظكم ، فما عاد أحد يعرف أحدا ، وحياتكم لن تعيشوها مرتين ، هى مـرة واحدة لا غير ، فامتصوا رحيقـها وانغمسوا فى مباهجها ، واحرصوا على ملذاتها ..

استجاب الناس لدعوة مـصطفى ، بدأوا بخلع ثيابهم ، كل ثيابهم ، ثم واصلوا ما يسـتتبع هذا الخلع من أفـعال وتصرفات ، تركـهم مصطفى

لأمرهم الذى انغمسوا فيه وقد تمتلكهم النشوة وخرج من السرادق وفى ذيله يسير هذا الذى دخل من ذيل السرادق . .

★★★★

سار مصطفى لفترة لم تطل ثم وقف واستدار وأمر هذا الذى يتبعه أن يتركه حذره أنه إن لم يتسجب لأمره فسيجمع كل حصى الأرض ليقذفه به حصـوة أثر حصـوة ، لا يتوقف حـتى يفارقـه وينصرف عنه ويـغرب عن وجهه، ذكره هذا الذى يسير فى ذيله أنه كمـا أحبه من قبل فهو يحبه الآن وأكثر ، ذكره أنه كم أخلص له دومًا وأتأمـر بأمره دائمًا وأنه لم يعارضه ، ولم يناقشه ، ولم يتـهاون فى تنفيذ كل ما طلبه منه ، اسـتعطفه أن يسمح له بأن يظل تابعًـا له ومتابعًـا ، إن لم يكن من أجل مواقفـه السابقة مـعه فعلى الأقل من باب الشفقة عليه ، بكى وقال

: كيف ابتـعد ، لم حـدث هذا لانتهـيت وممن أتعلم ، وممن أتلقى الأوامر ، من غيرك يستطيع أن يرشدنى ، ويقدر أن يأخذ بيدى

★★★★

أكد مصطفى لـنفسه أنه إن ضعف أمام الكلام والبـكاء ما عرف من هو مصطفى أهو هذا الذى يطل من المرآة أم هو الجالس على المقعد أمامها ؟ . .

وحتى لا يبدد مـصطفى وقتًا هو أحوج ما يكون لكل طرفـة عين فيه شد الرحال إلى مـثوى الآباء والأجداد ، غير عـابئ بالمتابعة اللصيـقة لهذا الذى يسير فى ذيله ، وصل إلى السور الخارجى .

«للجبانة» ولا نجـمة واحدة تطل عليه من علٍ . . حـتى البيوت التى تلاصقت حوائطها بالسور لم يتسرب من شباك واحد من شبابيكها بصيص ضوء ، أو يتسلل من فتحة من فتـحاتها هسيس صوت . . ولأن مصطفى كثيرًا ما آتى الجبانة من قبل نهارًا فقـد حفظت ذاكرته وقدماه دروبها الضيقة

وسككها الملتـوية تلك الدروب التى تقوده فى النهاية إلى مقـبرة الأسرة ، حتى إذا ما وصلها قال لنفسه بصوت مسموع « **هأنذا قد وصلت ، قادتنى أنفى إلى المقـبرة أرشدتـنى رائحة عظام سـاكنيها مـن الأهل والخلان دون غيرها من سائر عظام الخلق ، وعلى قبل أن أبدأ تنفـيذ ما أنتويت عمله أن ألقى على ساكنيها وساكنى هذه الباحة ممن سبقوا تحية السلام ، ثم أترحم. على الجميع طلبًا أن يترحم على فى قابل الأيام من يزور هذه المقابر . . .**»

★★★★

رد على سلام مـصطفى الكثيرون ، ثم أتاه صـوت خرج من مقـبرة الأسرة مـتسائلا : لماذا أتيت فى هذه الليلة التى لا قـمر فيهـا ولا نجوم ، وسمائها ملبدة بالغيوم تنذر بسيل عرم .

لم يرتبك مصطفى أو يهتز فينصرف عن هدفه بل أجاب

: أتيت لعلى أجد عندكم وأنتم أهلى وعشيرتى الإجابة على سؤالى.

توقع مصطفى أن يسمع تعليقًا لكن خاب توقعه فسأل

: أغاضبون أنتم منى ؟ الأننى لم أحمل كعادتى مجزءوات من سعف النخيل لأضعها على سقف المقـبرة ، لا ترغبون الآن فى مساعدتى ؟ ، إن كـان الأمر كـذلك فسـأذهب لفورى أبحث عـن نخلة أتسلقهـا وسط هذا الظلام لأحصل لكم من أعلاها على ما تودون . .

: ألا تخشى على نفسـك من السقوط فتدق عنقك .

: ومن يدرينى إن كان هو عنقى أو عنق الذى يطل على من المرآة .؟ ، أتقطعون أنتم برأى فى الأمر .

: مذ جـئنا إلى هنا تعـودنا ألا نقطع بشئ . . تركنا الأمر لـصاحب الأمر .

جلس مصطفى ، اسند ظهره إلى الجدار الشرقى للمـقبرة وقال لنفسه « **سانتظر شروق الشمس وبعدها يكون التصرف** » التقطت أذناه النداء.

: أسمع يا مصطفى ؟

: لك السمع والطاعة . . لكن من أنت ؟

: أنا جدك الأول رأس هذه العائلة .

: هذا الذى تحدثت عنه كتب التاريخ وقال « **المقريزى** » إنه كان رجلاً صالحًا كريماً محباً للخير يقضى حوائج المحتاجين ، لا ينتظر أجرًا ولا حتى الدعاء له ، أأنت من قالوا عنه أنه كان معينًا للفقراء والمساكين والحائرين ؟ . . إن كنت أنت ، فكما أعنتهم أعنى ، خذ بيدى وأنقذنى من حيرتى .

: دعك الآن مما جاء بالكتب ، وما رواه الراوون

: إذن فقد قررت مساعدتى

: وهل يساعد الموتى الأحياء يامصطفى

: إذن ما هو هذا الذى تود أن تقوله لأسمعه ؟

: هذه الأغنية .

: أغنية ياجدى الأول ؟

: نعم أغنية ياولدى فما وجه العجب

: أغنية تخرج من جوف مقبرة وتحوم فى سماء الجبانة

: نعم فاسمع

★★★★

بصوت شجى حلقت الأغنية فى فضـاء المقبرة يترنم بها الجد ويرددها خلفه مجـموعة من ساكنى المقابر ، وبفـعل رتمها الرائق تحول يابس المكان

بحرًا صافيًا فحمل موجه الرقراق مصطفى ، سبح به مهدهدًا ، ومن طلاوة أداء الجد لم ينتبه مصطفى لكلمات الأغنية إلا عندما توقف الجد عن الشدو . . كانت الكلمات تتحدث عن أشياء كثيرة وعن هذا الذى آتى مع مصطفى مقتحمًا المكان ، مستمدًا الحماية والملاذ من ملازمته الطويلة له . . من عذوبة الشدو وشفافيته تمنى مصطفى أن يعود الجد للترنم بصوته الشجي بنفس كلمات الأغنية ليتابعها ، يحفظها ويرددها خلف جده كما يرددها الآخرون ، حتى وأن شرخ صوته النشار هذا الصفاء النغمي فإن الجد المباشر لمصطفى هذا الذى طالما جالسه واستمع منه النوادر والحكايات وهو يرويها له والذى طالما خصه دون باقى الأحفاد بمكعبات من السكر وحبات الفول السودانى ، أو يمنحه الرشفة الأولى من قهوته التى يعدها لنفسه وفقًا لطقوس خاصة لم تمحها من ذاكرته أحداث الدنيا وهموم الحياة .

: السيل سينهمر ، حاول أن تحتمى منه .

أضاف الجد الأكبر الذى ورد ذكره بالكتب وروى الرواة عنه وعن كراماته الكثير

: والأفضل أن تدخل ، تأتى إلينا ، وحتى لا تنزعج من منظرنا اغمض عينيك ، لا تفتحها حتى تتركنا وتخرج .

★★★★

لم يكن الظلام داخل المقبرة بأشد من خارجها ، وإن كان جوها أدفأ وسكينة غير مألوفة تملأها . . جلس مصطفى على أرضها المغطاة بما يشبه الرمال وإن كان لها ملمسًا يفوق الحرير فى نعومته ، التزم مصطفى بنصيحة الجد ولم يفتح عينيه ، لكنه بعد حين ضاق بعماه الارادى الذى يعيشه وانقاد لرغبة ضاغطة تدعوه أن يفتحهما ليرى الأجداد ، بداية من أولهم وانهاء بأخرهم ، ففعل ، فقال الجد الأكبر

: لن ترى منا غـير العـظام والجمـاجم ، وأياك أن تلمـسنا فتتفـتت ونتحول لذرات من تراب ناعم

: رآهم مصطفى كـما ذكر الجد مـجموعـة من العظام لا تبعث على الرعب ولكن على الإكـبار والتأمل ، أدهشـه أن عينه قـادرة على الإبصار وسط هذا الظلام ، أستحى أن يسألهم عن السبب ، ثم اراحه فى حينه أن استنتج أن عظامهم تحتـوى على كمية من الفسفور أكـثر من المعتاد ، أو أن الظلام نفسـه من نوعية مـغايرة مثلـه فى هذا مثل الرمال ، أيقن أن أكـبر الجدود وأولهم هو الذى يتـوسطهم وأن الاثنين المجاورين له عن يمين وعن يسار هما ولداه الذى رحل عنهما ولم يترك لهـما إلا ذكراه الطيبة فما ترك لأيهما مالاً أوعقاراً . أما من يلى الولدين فهم باقى الجدود والآباء . .

★★★★

لم يكن المكان الذى يضمهم فى اتسـاع السرادق الذى اقامه هو هناك بأكبـر ميدان من مـيادين المدينة ، وإن كـان يوحى للرائى أن أمتداده أكـبر واعمق واتساعه أرحب وأعظم . . كـان هو وحده الذى يرتدى ثيابًا ، فكر أن يخلعـها لولا أنه تهيـب منهم واستحى ، وخـشى أن يسئ بفعـلته هذه اليهم ويشجب وقار المكان .

استـشعر مصطفى أن هـناك كائنات أخرى غيـر بنى البشر تشـاركهم المكان تخـيلها طيـوراً ذات أجنحة من ذهب وذيولاً من فـضة ، ومناقـيراً أنفس من الماس ، وعيونًا أصفى من الماء الزلال ، جاءه صوت الجد

: هى تشاركنا المكان ، يرزقها الخالق من فضله وكرمه ، فما جاعت وما ظمأت .

تحركت خاصية التمرد الكامنة فى مصطفى فسأل الجد

: أصدقك ياجدى إن رأيتها بعينى

: لك يوم موعود هو لا محالة آت فتنعم بـرؤيتها كما يحظى بعضنا برؤيتها ، تذكر أن الأمر يتوقف عليك وحدك دون سواك : أكلكم يراها ؟

: بل البعض ، وهناك من هذا البعض قلة ترى ما هو أكثر

: وما هو هذا الأكثر ؟

: هو ما لا يمكن التعبير عنه بكلام ، أو تشبيهه بأوصاف وصور

: ساعدنى ياجدى لأعرف

: كل شئ مرهون بوقته

: كأنك تتعـمد أن تتخلى عنى ، أو تبخل على بما حـباك الله به من علم ومعرفة

: دعك من كل هذا يا ولدى فـموعـد لوذنا بالصمـت قد اقـترب ، خبرنى ، ألك رغبة فى طعام ؟

: ما أنا بجائع ، وما أتيت من أجل هذا

: أبك حاجة لشراب

: ما أنا بظامئ

: أدلك طريق السرادق على شئ ، وأجاب عن سؤالك

كلا لهذا جئتك وبقى على أن أعرف علام يدلنى عليه هذا الطريق

: أمن أجل المقارنة وحدها تسعى

: ولشئ آخر يغيب عنى الآن ، آه لو أعرفه

★★★★

تخـافت صوت الجـد ، ثم تلاشى ، ففـقـدت العظام قدرتهـا على التماسك فتهاوت ، وتحولت كومـة من تراب ، تغير دفء المكان صقيعًا ،

وأمنه رعبًا وصفاؤه كدرًا ، صرخ مصطفى فزعًا ، بحثت كفاه عن «المنزل» ليقـوده إلى الخارج ، فاسـتقـبله ذباب أزرق طنان ، حاصره بطـنينه ، لجأ مصطفى إلى الابهامين ليسد بهما فتحتى الاذنين ، لكن عندما حط الذباب فوق شعر رأسه ليتخـذ منه عشًا ، رفع الابهامين عن الاذنين واستغرق فى مطاردة الذباب ، أجهد ساقيه ليفر من باحة المقابر ، تلقفت جانبيه جدران المقابر تتقاذفـه يمنه ويسرى ، أيقن بهلاكه فهطلت دموع عينيـه ، استعصى التنفس على الرئتين وتكاسل القلب عن النـبض ، ظهر له هذا الذى دخل من ذيل السرداق وقال

: مرنى سيدى مصطفى ، انصـاع للأمر ، لا أناقشك فيه أو أجادلك بشـأنه خيالـت مصطفى اصـداء الاغنية بشـدوها الرائق ، استنطق لسـانه ليـشارك الآخـرين وهم يرددون بعـض كلماتهـا مع الجـد . . لم يتـمكن لانشغاله بتحاشى مـطر بدأت قطراته ناعمة ، ثم غلظت واتصلت وتحولت اسيـاخا من حديد يسـعى لينغرس فى رأسه ويطول عـقله ، فعلت رقبـته المستحيل لينجو ، تحركت حركة بندولية سريعة لتتحاشى هذه الأسياخ التى لا نهاية لمداها ولا حصر لعددها ، سأله هذا الذى دخل من ذيل السرادق

: تشجع سيدى ، مرنى لتنجو من هذا العذاب

مرقت كالبرق الطيور التى تخيلهـا مصطفى تحلق فى المقبرة فتمنى لو تريثت ومكثت ولازمته ، ظهـر السور الفاصل بين المقابر والبـيوت السكنية كانت نوافـذ الحجرات كلهـا مفتوحـة ، وأبواب الشرفات كلـها مفتـوحة والأضواء تنبثق منها مضفورة حـزمًا متعددة الألوان والأحجام والسطوع ، من فـتحـات النوافذ وأفـاريز الشرفـات اطل رجال ونسـاء وأطفال نطقـوا باللسان، وقال هذا الذى دخل من ذيل السرادق الذى أقـامه مصطفى بأكبر ميدان .

: الجميع يرحب بـك سيدى مصطفى فرحب بهـم ، أخرج إليهم ،

قدهم إلى السرادق حيث الكئوس الممتلئة بالشراب تنتظرهم لينهلوا منها كما فعلوا من قبل أومرنى أقم هنا سرادقًا جديدًا على هيئة وصورة السرادق الذى اقمناه سويا هناك ،

استعاد مصطفى ما رواه الرواة عن جده الأول فتمنى لو أطلع على ما يرويه الرواه عنه لأحفاده وأحفادهم ، وما يخطه ويسجله الكتاب فى مجلداتهم من وقائع وأحداث مر بها وعاشها ، تساءل أيفخر بها الأحفاد أم يتوارون منها خجلاً ، وتمنى لو أخترق حجب الغيب ليطلع على هذا المكتوب



سأل مصطفى نفسه ورقبته لم تزل على حالتها من الحركة البندولية ليتحاشى أسياخ المطر الحديدى ، أيرشحه سجله ليصبح واحدًا من هذه القلة القليلة التى ترى من الأشياء ما لم يمكن وصفه أم يكون من بين هذه الكثرة التى محكوم عليها الا ترى أى شئ ؟ . . بحث عن باب بالسور لينفذ منه ، لم يجد وهو الذى عرفه ذاخراً بالعديد من الفتحات ، رآه جداراً أملسًا مرتفعًا صلداً، لا طاقة لبشرى على ارتفاعه ، قال مصطفى لنفسه **«إن تمكنت من استعادة كلمات الاغنية التى ترنم بها الجد وشدا لأبصرت فتحة من فتحات السور ولانفتحت لى طاقة تسمح بمرور جسدى،»**

قال هذا الذى دخل من ذيل السرادق

: سيدى مصطفى ، لماذا ارهاق الذاكرة ، الحل سهل ميسور ، مرنى افتح لك فتحة



امتلأت الشرفات بالخلق تتفرج على مصطفى وترقب ماذا يصنع ، حثته الأكثرية أن يستجيب لمشورة هذا الذى دخل من ذيل السرادق بينما استعطفته القلة الا يفعل ، انسحب الضوء المتسرب من النوافذ والأبواب إلى الداخل ثم تلاشى فاختفى السور عن عينى مصطفى ، لم يبق له من

دليل يقوده إليه أو إلى مقبرة الأجداد ، لم يعد أمامه للعثور على بغيته إلا التخمين فقال لنفسة «**إن كنت لم أفلح فى اعتلاء السور وأنا أراه فكيف أرتقيه ولم يبق حولى غير الظلام ؟**

(٢)

قلت لنفسى :

« هأنذا أعيش الآن اختبارى الثانى و وقد يكون الآخر فماذا أنا فاعل؟ ، اختبارى الأول بدأ عندما أخرجت المرآة من مكمنها الآمن فاكتشفت ما اكتشفت . . صحيح ربما أغاظنى حينها أننى فعلتها متأخراً ولكن يريحنى الآن أننى فعلتها ، فقد كان واردًا أن يمر الزمن ولا أفعل ، ولا أخوض غمار الرحلة لمعرفة من يكون بالتحديد هذا الذى أحمل اسمه أو يحمل اسمى وعندما اكتشفت اتبعت عمدًا وبوعى كامل ما عن لى من أفكار حسبت أنها تقودنى لمعرفة ما أود معرفته وإجابة على السؤال ، لم يثنينى عن تنفيذها أنها بدت للغير مجنونة طائشة ، ولم يصرفنى عنها ما ورائها من صعاب . . السرادق لم يكن حلمًا ، ومقبرة الأجداد لم تكن وهمًا ، الأثنان كانا هما الحقيقة الوحيدة التى أجزم أننى عشتها وشاركت فى أحداثها . . والظلام الذى يكبلنى الآن لا يمكن بحال انكاره ، وعلى أن أجد الوسيلة التى تحررنى من أسره سواء أكان ذلك بتذكر كلمات الأغنية أو باصرار الامر لهذا الذى لازمته ولازمنى . . لم تطل حيرتى إذ قررت أن أطرحها معا ورائى لا أفكر فيهما . . قلت الظلام شامل فلأصنع أنا الضوء . . فصنعته ، وقلت السور مرتفع فلأرتقيه أنا . . فارتقيته . . وإذا استقرت قدماى فوق حافته العليا ، انقشع الظلام ، وعم الصمت »

(٣)

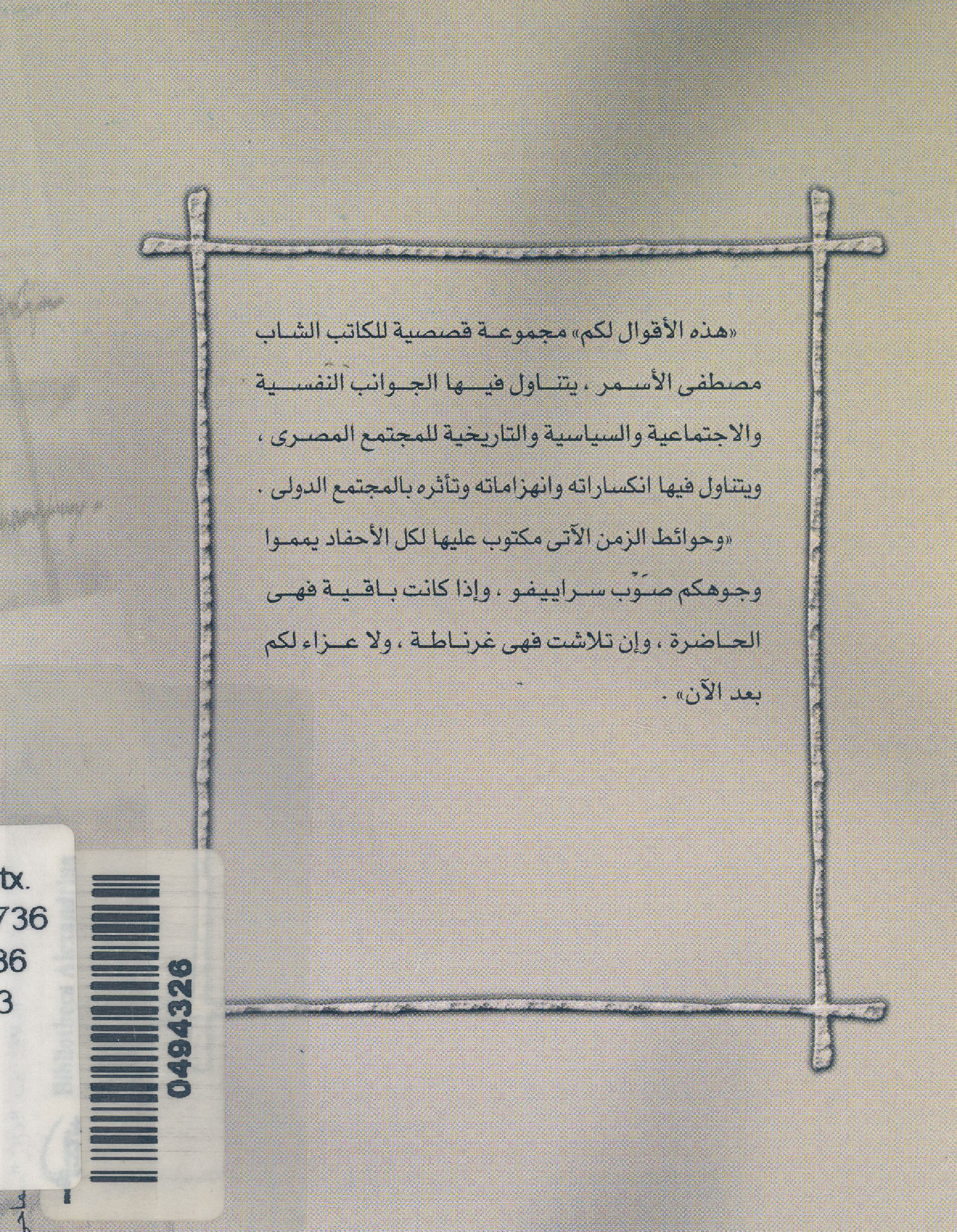
أحضر مصطفى

١٩٩٤/١١/١٦

الفهرس

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٧٧٥٧ / ٢٠٠١



«هذه الأقوال لكم» مجموعة قصصية للكاتب الشاب مصطفى الأسمر ، يتناول فيها الجوانب النفسية والاجتماعية والسياسية والتاريخية للمجتمع المصرى ، ويتناول فيها انكساراته وانهزاماته وتأثره بالمجتمع الدولى .

«وحوائط الزمن الآتى مكتوب عليها لكل الأحفاد يمموا وجوهكم صوّب سراييفو ، وإذا كانت باقية فهى الحاضرة ، وإن تلاشت فهى غرناطة ، ولا عزاء لكم بعد الآن» .